t.me/qurssan

© Copyright 60pages, Berlin

غرفة ٣٠٤

كيف اختبأت من أبي العزيز ٣٥ عامًا

عمرو عزت

الطبعة الأولى ٢٠١٩

تصنيف الكتاب: أدب / سيرة

© دار الشروق

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٨/٢٦٨٥٩
ISBN 978-977-09-3544-6

تصميم الغلاف: وليد طاهر

عزت، عمرو،
القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٨
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٥٤٤٦
١ - المذكرات
أ. العنوان

غرفة ٣٠٤/ عمرو عزت
١١٢ ص، ٢٠سم
رقم الإيداع ٢٠١٨/٢٦٨٥٩

٩٢٠

t.me/qurssan

عمرو عزت

غرفة ٣٠٤

كيف اختبأت من أبي العزيز ٣٥ عاماً

دار الشروق

t.me/qurssan

t.me/qurssan

١

١٩٨٠

بكت أمي فور أن رأتني مولودا، ظنت أني مصاب إصابة خطيرة في جبهتي، لون أحمر نبيتي يحتل النصف الأيمن من جبهتي من مفرق الشعر وحتى جفن عيني اليمنى. أخبرها من في مستشفى الولادة أنها ليست إصابة لكنها «وحمة»، النسخة المهذبة من التعبير الشائع الغليظ «عيب خلقي»، لا تعرف العامية مقابلا للتعبير المحايد: «علامة ميلاد». واصلت أمي البكاء.

الفكرة الشعبية عن «الوحمة» أنها أثر من لون طعام ما «توحّمت» عليه الأم، أي اشتهته، أثناء حملها ولم تحصل عليه فظهر في جسد المولود. قالت أمي إنها لم تتوحّم على شيء، وقيل لي طوال فترة الطفولة إن ذلك الأثر هو «ختم الجنة»: من يولد بالأثر فهو بالتأكيد من أهل الجنة.

لا أذكر من كان صاحب الفكرة، لكنها كانت فكرة عملية تناسب تساؤلات الأطفال الآخرين الذين يثيرهم هذا الاختلاف وهذه العلامة النادرة غير المعتادة، الوحمات المعتادة داكنة وصغيرة وقليل منها ما يكون في مكان مميز من الوجه. ولكنها أيضا كانت فكرة جميلة ناسبت طفلا هادئا ودمثا، مطيعا ومتفوقا في الدراسة.

t.me/qurssan

كنت متطرفا في امتثالي بحسب رواية أبوي عن طفولتي، تكفي مرة واحدة يقال لي فيها إن هذا عيب أو ذلك غير مقبول لأتجنبه تماما.

كانت هذه الفكرة الحالمة عن مصيري فيما يبدو مصدر هدوء وسكينة وغرابة. في الواقع كانت أشبه بمكافأة سريعة جدا على امتثالي وطاعتي، ولكنها بدأت تكتسب غرابة وأنا أتقدم لمراحل أكثر وعيا في الطفولة لأجدها أشبه بفكرة ساخرة جديرة بأن تقال كعزاء للبائسين، بينما كنت قد بدأت أعي نفسي طفلا ذكيا ومحبوبا ومتفوقا ويحتل مكانة بارزة في العائلة، ورغم ما قد تثيره «الوحمة» من بعض الغرابة في مظهري لمن يراني للمرة الأولى، إلا أنها لم تمنع من كوني تمتعت أيضا بكوني طفلا جميلا رغم هذه الغرابة، ما زلت أحب صوري في طفولتي أكثر من صوري الآن.

كانت ملامح أبي توحي أنه سيخبرني بمفاجأة غير سارة عندما ناداني ذات مرة. أجلسني وقال لي: إنت كبرت بما يكفي، مافيش حاجة اسمها «ختم الجنة»، دي وحمة عادية، ومافيش حد يعرف من سيدخل الجنة ومن لن يدخل، ربنا وحده يعلم.

خطر لي وقتها ـ كتلميذ نابه ـ الشخصيات التي يعتقد المسلمون أنها ستدخل الجنة لا محالة، النبي محمد طبعا وسائر الأنبياء، والعشرة من أصحاب محمد المبشرون بالجنة. وكنت ما زلت أنظر إلى المجلدات المذهبة للكتب التراثية في مكتبة البيت، وأفكر أن فيها آلاف النصوص التي لم أعرفها بعد، والتي ربما كان منها ما سوف يخبرني أن تلك العلامة بتلك المواصفات هي علامة طفولة المهدي المنتظر أو المسيخ الدجال، أو أي بطل أسطوري آخر،

t.me/qurssan

ولكن كان ذلك يعني مصيرا مثيرا هنا في الدنيا وليس مجرد إخبار عن مصيري بعد الموت.

قلت له: عارف طبعا، أنا ما بقتش صغير.

ضحك وتغيرت ملامحه الجادة وهو يربت على شعري وينظر إليّ في عيني بحب ويخبرني أنه يعرف أن عقلي كبير، وأنه على الرغم من ذلك فإنني طبعا من أهل الجنة، إن ظللت على ما أنا عليه الآن.

حسنا، أعتقد أنني ما زلت على ما كنت عليه بالفعل، بشكل كبير، ما زلت مسترخيا وأشعر ببعض الغرابة ولا تزال علامتي المميزة هناك، رفضت التفكير في محاولات إزالتها التي أصبحت ميسورة، ولم أهتم بالبحث عن حقيقتها بعيدا عن معتقدات الوحمة التي لا يعتقد فيها أحد الآن جادا.

قالت لي امرأة سيناوية تبيع الإكسسوارات على شاطئ نويبع: «شهوتك جميلة» وأشارت إلى جبهتي. بدو سيناء لديهم نسختهم من معتقد «الوحمة» ويسمون أثر الاشتهاء هذا «شهوة». ابتسمت صديقتي الطبيبة وقالت إن التعبير السيناوي يلعب بالقرب من الاسم العلمي لهذا الأثر، فهو في كتب الطب «بقعة نبيذ برتغالي» Port-wine stain وضحكت وهي تقول: ماما اشتهت نبيذا أحمر برتغاليا على وجه التحديد؟

قالت أيضا إنه من الجيد أن أبي لم يحضر لها نبيذا برتغاليا وإلا لم تكن علامتي لتكون موجودة. كانت تحبها.

حكيت لها عن «ختم الجنة» فقالت متحمسة للفكرة إن النبوءة

t.me/qurssan

صحيحة وإنني أبدو لها فعلا كواحد من أهل الجنة، إن وجدت، حتى وأنا أحمل كأسي من النبيذ لا أبدو كسكير شهواني منفلت من «الأشقياء» ـ بما في ذلك من تلميحات سلبية أو لائمة لكوني لم أكن مقبلا عليها بالقدر الذي تحبه ـ ولكنني أشربه كما سيشربه المؤمنون في الجنة.

٢

١٩٧٨

عندما قرر عزت محمود، أبي، الزواج من هدى مصطفى، أمي، كان ذلك بعد مشادة بينهما احتد فيها أبي ورجعت أمي إلى البيت تبكي، فابتسم والدها الذي طالما أربكه ترفع ابنته على شبان المنطقة، وقال لها إن هذا زوجك.

يحكي لي أبي أو تحكي لي أمي ذلك بابتسامة راضية، تبدو الحكاية مفتتحا مميزا. الشاب الأسمر ذو الشعر الخشن، مهندس الديكور، الذي يحمل جاذبية فنان تخرج في كلية «الفنون الجميلة»، وخشونة ضابط مهندس امتدت خدمته العسكرية في الجيش من هزيمة ١٩٦٧ إلى نصر١٩٧٣، وطموح مهندس قرر أن يبدأ عمله حرا ويصمم وينفذ واجهات بعض المتاجر الكبيرة في إمبابة قبل أن يبدأ العمل مديرا للديكور بشركة «عمر افندي» العريقة ذات الفروع الممتدة في كل أنحاء مصر. والفتاة الجذابة المدللة، التي بدأت تدريبها مبكرا

t.me/qurssan

أثناء دراستها الجامعية في شركة «مصر للسياحة» مع والدها، ثم بدأت العمل هناك مبكرا وتحمست لمجال عمل بدت واعدة فيه، ونظرت بكثير من الاستعلاء والاستغناء للمتقدمين للزواج من الفتاة الجميلة التي تلفت أزياؤها الحديثة نسبيا أنظار شباب إمبابة.

إمبابة في الخلفية، الضاحية الضخمة التي لا تزال حتى الآن تتمدد بمساكن عشوائية البناء على مساحات واسعة من الريف الذي يحتل الضفة الغربية للنيل، وتحاول أن تتسع لسكن الطوفان القادم من الصعيد والدلتا، وتشتهر بمحاولة أسطورية للاستقلال عن الدولة كـ«جمهورية إسلامية».

وفي الخلفية أيضا جمال عبد الناصر، وانقلاب الجيش على الملك في ١٩٥٢ وتأسيس الجمهورية ذات الطابع الاشتراكي، فرص أوسع للالتحاق بالتعليم الجامعي لمعظم فئات الشعب، فرص أوسع للعمل في الشركات المملوكة للدولة، عمر افندي ومصر للسياحة هنا. تنحسر الحماسة للتجربة الاشتراكية بعد الهزيمة، صور في السبعينيات لأبي بالبنطلون الشارلستون ولأمي بالجينز، تحكي أمي ذات الحجاب الصارم الآن كيف كان صادما ومثيرا أنها كانت من أوائل الفتيات اللاتي ارتدين الجينز في إمبابة، يحكي أبي كيف استطاعت غيرته وصرامته أن تجعلاها تتخلى عن حبها للموضة لتعود إلى أزياء أكثر محافظة.

تزوجا واختارا السكن قريبا من الأهل ولكن على مسافة ما في طرف إمبابة، بعد شريط القطار الذي يحمل الغلال من الصعيد إلى

t.me/qurssan

الصوامع قرب النيل، في أرض قامت جمعية تعاونية بتخطيطها وبيعها للأهالي، قررت الدولة أن تسميها «تقسيم ٦ أكتوبر» لكن الناس أسموها «أرض الجمعية»، بعد ثلاثين عاما استسلمت الدولة وغيرت اسم المنطقة في كل الأوراق الرسمية وفي لافتة قسم الشرطة. المنطقة التي حظت بتخطيط أفضل للشوارع ومساحات المساكن احتلها سريعا أبناء الأجيال الأحدث من عائلات إمبابة، بعد جدالات مع الأجيال الأقدم الذين استنكروا أن يبتعد أبناؤهم عنهم وعن الشقق التي أعدوها لهم في بيوتهم القديمة ليسكنوا في ذلك المربع الخالي «البعيد» وراء شريط القطار.

لاحقا سأتمشى من ذلك المربع البعيد وسط زحام من البيوت والناس، عابرا شريط القطار من بيتنا إلى حيث بيتيّ أجدادي لأبي وأمي في ثلث ساعة على الأكثر.

كلا من العائلتين أتى في رحلة أطول بكثير من الريف، أجدادي لأبي من ريف الصعيد، وأجدادي لأمي من ريف الدلتا، كلاهما بنى بيتا صغيرا متواضعا سكن فيه بعض أولادهم، والبعض الآخر سكن في بيوت محيطة، بينما فضلت أقلية الابتعاد لخطوات مثلما فعل أبي وأمي.

أوائل التسعينيات كانت لدى أبي وأمي خطة للانتقال من ضاحية غرب النيل إلى ضاحية شرق القاهرة، إلى شقة في حي مدينة نصر، الثكنة السكنية/ العسكرية الشاسعة التي قررت الدولة إنشاءها في أواخر السبعينيات، تترامى فيها العمارات المتشابهة غالبا للشرائح

t.me/qurssan

الجديدة الصاعدة للطبقة الوسطى بين أسوار المنشآت العسكرية والمباني الحكومية وكليات جامعة الأزهر. كانت الشقة جزءا من أتعاب أبي عن مقاولة كبرى لتصميم وتنفيذ مجمع طبي كبير، لكن المسافة كانت أكبر مما يحتمله أبواي اللذان استراحا في البقاء على بعد خطوات من بيوت الآباء.

٣

١٩٩٦

ملامح وجهه الغاضب وهو يزعق فيّ: «يا ابني. أنا اللي جبتك»: هل هذه هي ملامح الحجة الإلهية للعتاب على العصيان؟

كان ذلك، ربما، قبل عشرين سنة. في ذاكرتي كل التفاصيل البصرية للمشهد: تغضنات وجه أبي الأسمر وهي أكثر حدة وحيوية، تختلج بقوة مثيرة للانتباه عند أدنى انفعال. كان يرتدي فانلة داخلية بيضاء على سروال البيجاما، كما يعتاد أن يرتدي في البيت أيام الصيف، واقفا عند أول الممر الممتد بين الصالة وبين الغرف، خلفه تظهر الثلاجة من باب المطبخ والدولاب الضخم الذي يحتل حائطا كاملا في غرفة نومه يظهر بعضه من بابها، وإلى اليسار الباب المقفل لغرفتي التي أفكر متى ينتهي هذا المشهد لأهرب داخلها.

لم أستطع أن أهرب من الجسارة الإلهية لتلك العبارة: «أنا اللي جبتك»، كيف يمكن في جدل بين إرادتي وإرادته، في توتر بين

t.me/qurssan

وجوده ووجودي أن أواجه حجته تلك في أن إرادته هي التي أتت بي إلى الوجود.

عثرت على رد: «صحيح. المفروض أعمل إيه؟»، أو فوجئت بي أقوله. تأملت ردي يصدر مني ويبتعد متوجها إليه، وتأملت أبي وهو يسمعه ولا يقف عنده كثيرا ويواصل عتابه وغضبه. فكرت إن كان ردي يعني استنكارا أم يتضمن امتثالا، أم أنه كان امتثالا استنكاريا. إن كان يقع في تلك المساحة التي أشعر فيها بذلك الارتباك من أن وجودي متعلق بوجوده، مستند إليه، خارج منه، أو في تلك المساحة الأخرى التي وجدت فيها وجودي وإرادتي يبتعدان عنه، بخطوات مرتبكة، ويقفان أمامه الآن في مواجهة، وكيف أن ذلك ذاته كان مدهشا وغريبا، ولا يزال.

كانت المرة الوحيدة التي قالها، ولكن كانت كعنوان كتاب، تظلل دلالاته وإيحاءاته كل ما هو مكتوب فيه. كان ذلك دائما عنوان إشهاد مربك.

٤

١٩٩٥

في القرآن: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[1].

(١) (الأعراف: ١٧٢).

t.me/qurssan

يروى أن النبي محمدا قال تفسيرا لهذه الآية: إن الله مسح على ظهر آدم فأخرج إلى الوجود، مؤقتا، كل أولاده من وقتها إلى قيام الساعة وأشهدهم جميعا وقال لهم: «أنا ربكم»، لئلا ينكروا ذلك لاحقا، ثم أعادهم إلى ظهره مرة أخرى.

قال لي شيخي السلفي في درس العقيدة إن هناك خلافا بين العلماء إن كان ذلك الإشهاد قد حدث بالفعل أم أنه مجاز لفعل الله في الفطرة الصحيحة الأصلية للبشر التي تقر بأن الله هو خالقهم، لكن القول الأصح، في رأيه، هو أن نفهم تلك المرويات على ظاهرها بدون الاعتقاد في مجاز، ولذلك فكلنا جميعا كنا هناك في ذلك المشهد، حيث خاطبنا الله مباشرة وقال لنا إنه ربنا وإننا أقررنا ذلك قبل أن نعود إلى ظهر أبينا آدم.

«وما حجة التذكير بذلك الإشهاد إن كنت لا أذكره فعلا الآن؟»، سألته:

قال: الإنسان ينسى، ونسيان الشيء لا ينفي وجوده.

ضحكت وقلت له: ولكن كلنا نسينا فيما يبدو. هل تذكر أنت؟

ضحك وقال: نعم أذكر جيدا وأذكر أنك كنت معنا. ثم اعتدل في جلسته وقال بجدية: عموما، المتفق عليه أن أثر ذلك الإشهاد، سواء كان مشهدا أو مجازا، هو في فطرتنا الصحيحة التي تميل للاعتراف بوجود الخالق.

لم أجادل أكثر، كنت أنا و«فطرتي» وقتها في جانب واحد مع شيخي، فلم تكن هناك مشكلة.

t.me/qurssan

كان ذلك قبل الإشهاد الأبوي: «أنا اللي جبتك». بعدها فكرت، وباب غرفتي مغلق، أن الآباء عادة لا يحتاجون لإشهاد، أبي خاصة لم يكن ليحتاج لإشهاد، إن أبوته هنا، خلف باب غرفتي، وداخلها أحيانا، لا أحتاج أن أتذكر أو أنظر في «فطرتي» كما يقتضي البحث عن أثر الإشهاد الإلهي. بل إن لسان الألوهية في «الكتب المقدسة» يشكو ميل البشر للانصياع لتأثير الأبوة الذي يعادي الامتثال للألوهية ورسلها. عاتب الله كثيرين في القرآن أنهم ظلوا على ما وجدوا عليه آباءهم بينما لم يطيعوا فطرتهم ولا رسله ولا كلماته التي أرسلها معهم. قالوا له ولهم: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾[1] أو تساءلوا استنكارا: ﴿نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾[2].

وباستثناء تلك اللحظات الصراعية، التي أسفرت فيها الألوهية عن نفسها عبر رسل واجهوا صعوبات مع تأثير الآباء، يبدو أن الألوهية نفسها تجد طريقها المستمر إلى الناس عبر الأبوة، الآباء المؤمنون يورثون أبناءهم الإيمان. هذا هو أكثر الطرق ازدحاما إلى الإيمان.

يقول لي الشيخ مرة أخرى: إن قولا آخر للمفسرين أن الإشهاد ينتقل عبر الذرية. هممم، عبر الآباء. الآباء هم ضمان الذاكرة الأزلية وحاملوها.

لقد بدا لي الدين كله، بعدما قمت وذهبت بعيدا عن شيخي السلفي، مسألة تذكر. ليس على طريقة فرويد، الذي يعتقد أن الدين

---

(١) (البقرة: ١٧٠).

(٢) (لقمان: ٢١).

t.me/qurssan

يحمل الذاكرة البدائية البشرية: طفولتها، بحثها عن الأب في العالم. على العكس، بدا لي أحيانا أنه عند انسداد كل الطرق إلى الألوهية، أو إلى مطلق يهدئ قلق الوجود: التجربة الروحية، الفطرة، العقل، نظرية الخلق، التفسر الديني للعلم، إحكام الرسائل الدينية وإعجازها، الاحتياج الإنساني إلى الأزلية والأبدية، عندما يتعثر كل ذلك هناك طريق محتمل: الدين هو ذاكرة البشرية بشأن الألوهية التي لا مدخل لنا إليها الآن، لقد كان هناك طريق- ربما- ولم يعد موجودا، لم يعد لنا إلا الذاكرة، ومعها التشوش والاضطراب والنسيان. في الدين نحن بالكاد نتذكر ما هو بعيد جدا، ما هو أبعد حتى من النسيان، نتذكر ما لم نشهده. وفي هذا الطريق، إن بدا لنا أن نسلكه، يجب أن نثق في آبائنا، أو يجب أن نجد لنا آباء، ونقنع بما بقي في ذاكرتهم لنحمله إلى من بعدنا عندما نصير آباء.

ولكن حتى وأنا أكتب مشهد إشهاد أبي عليّ: «أنا اللي جبتك»، حاولت أن أتذكر سبب جدالنا وسبب غضبه وما كان يريده مني. لا أذكر شيئا سوى الإشهاد نفسه.

٥

١٩٩٠-١٩٩٣

قالت المدرّسة في حصة الدين: «لازم نطيع ربنا لأنه هو اللي خلقنا»، فقال واحد غيري: «ليه نطيع اللي خلقنا؟»، ضحكت

t.me/qurssan

المدرسة ونقلت بصرها بين وجوهنا الصغيرة التي ضحك بعضها ووجم بعضها الآخر. ويبدو لي أني أذكر بعض الارتباك على وجهها عندما وجدت بعضنا ينتظر الإجابة. قضمت ضحكتها ووجمت للحظات ثم قالت: «ليه؟.. من غير ليه؟» ثم تذكرت شيئا وقالت: «لأنه هايحاسبنا، وهاندخل الجنة لو أطعناه والنار لو عصيناه»، فقال نفس الولد: «وليه يعمل كدا؟»، ارتبكت ارتباكا واضحا وسكتت قليلا وحدقت في نقطة بعيدة وقالت بصوت خاشع: «لو سألنا ليه عن كل حاجة مش هانوصل لحاجة».

أنهت كلامها واستدارت ببطء وكتبت شيئا آخر على السبورة. أعجبتني لعبة لا نهائية الأسئلة التي أربكت مصدر الأجوبة.

مدرّسة أخرى، وأنا أكبر قليلا، في المرحلة الإعدادية، قالت لي: دا أمر.

قلت: وليه لازم أطيع الأمر؟

فأرسلت في استدعاء ولي أمري.

حضرت أمي إلى المدرَسة واستمعت إلى شكوى المدرّسة وأبدت اندهاشها الشديد لتندهش المدرّسة بدورها، كنا في بداية عام دراسي جديد ولم تكن قد كونت أي فكرة عني، ووجدت أمي تخبرها أن هذه أول شكوى منى على الإطلاق منذ دخولي إلى المدارس وأنه تم تكريمي السنة الماضية «طالبا مثاليا»، ولكن يبدو أنها قالت لأمي إنه يجب عليها أن تنتبه لأنني أصبحت قريبا من شلة مشاغبين.

عرفت ذلك عندما أجلسني أبي أمامه وقال بهدوء: شوف، إنت مش هاتبقى «صايع»، مش هاينفع.

t.me/qurssan

لم يأت بأي مبررات، وخطرت لي لعبة الأسئلة اللانهائية بلا أدنى تفكير في لعبها.

انتشلني أبي من عجزي عن اللعب أمامه بإضافة أكثر إثارة: انتبه جيدا، إحنا عارفين كويس «عمرو الحقيقي» وبلاش تضيع وقتك في حاجات هاتندم عليها بعدين.

وضعت ذلك الأثر الغامض لعبارة «عمرو الحقيقي» هذه بجانب أثر «يا ابني. أنا اللي جبتك».

٦

١٩٨٧

لا يشبه أبي أباه، ربما بنفس القدر الذي لا أشبه به أبي، لأنني أشبه جدي كثيرا.

جدي كان هادئا، معتزلا، خفيض الصوت، يبدو لي أنه ترك أبناءه، أبي وعماتي الثلاث، يكبرون ويشقون طرقهم في الحياة بدون تدخلات كبيرة، تاركا لحزم جدتي وصرامة إدارتها معظم المهمة الأبوية.

رأيته كثيرا ما يقضي وقته بعد عودته من العمل يستمع إلى محمد عبد الوهاب أو يشرب الشاي في الشرفة، ويتابع زوجين من الحمام يعتني بهما في قفص صغير وهو يهش الذباب بمنشة أراها دائما بيده، حتى وهو يصطحبني في صباحات الجمعة لنتمشى ونشتري الفول والخبز، كنا نتبادل عبارات قصيرة وأوقاتا طويلة من الصمت.

t.me/qurssan

لم يترك لنا جدي الراحل أي علاقات بفروع عائلته، بينما لا تزال فروع عائلة جدتي حاضرة وقريبة.

أما أبي فهو اجتماعي شغوف بالناس، حتى إنه حاول أن يتتبع خيوط عائلة جدي ليعيد وصلنا بها، ينجح في إدارة علاقات قوية مع أي نوع من أنواع الناس، يحب الناس صحبته ويثقون به وتبدو في عيون النساء تجاهه أمارات الإعجاب والمهابة لحضوره الرجولي الواضح، متقد المشاعر والتعبيرات، ينفجر ضحكا أو يشتعل غضبا، حتى ابتسامه وعبوسه كانا يحدثان باختلاج كبير واضح في ملامحه، نبرة صوته عالية، دافئة وخشنة. ربما ترك لأمي الكثير من تفاصيل إدارة حياة أولاده الثلاث، ولكنه كان يراقب باهتمام بالغ ومحيط، وفي المنعطفات الحاسمة كانت تدخلاته عميقة وضاغطة وقراراته كانت في معظم الأحيان حاسمة وفوق المناقشة.

«طالع لجدك»، يعبر أبي عن انتباهه لقرب شخصيتي من جدي بقدر من الحزن وربما قليل من الدهشة، ربما كان حزنا على أبيه الراحل الذي أذكّره به أحيانا، وربما مندهشا من أن شخصية جدي الهادئة الأقل عنفوانا قد مرت من خلاله إليّ.

يزعجه خجلي وهدوئي الزائد وأدائي الاجتماعي الميال للانسحاب، لماذا لا ألقي السلام على الجيران وأصحاب المحلات أثناء مروري. ولماذا أفعل؟

كان يلاحظ ذلك دائما أثناء نزولي قبله مباشرة، وكيف أمر ساهما إلى هدفي، وعندما يظهر هو خلفي يبدأ بصوت قوي في

t.me/qurssan

إلقاء السلام والسؤال عن الأحوال فيصخب المشهد من خلفي بحفاوة متبادلة.

قال لي مازحا ذات مرة: مش برضه إلقاء السلام على الناس فرض في الإسلام يا شيخ عمرو؟

لم يكن الأمر يحتاج لأن أكون طالب علم سلفيّ كما كنت وقتها ليكون ردي السريع المصحوب بابتسامة إفساد خطته: لا، إلقاء السلام مستحب مش فرض، رد السلام هو الفرض.

فضحك وقال: ماشي .. ماشي يا ابن الكلب.

«يا ابن الكلب» و«يا ولاد الكلب» يستخدمهما وقت الرضا والمزاح ووقت الغضب والتوتر، وكان سماعها بالنبرة المازحة يجعلني أرفل في استرخاء لساعات، وبالنغمة الغاضبة تتركني متوترا وقلقا لأيام.

كان يحب استخدامها أحيانا وهو يشير إلى تشابهي معه في أشياء ليس من المفترض أن أشبهه فيها، لضرورات التربية، مثل السهر حتى الصباح ثم النوم حتى الظهر مثلا، كان يحب دائما بعد أن يلومني جادا أن ينقلب فجأة إلى المزاح وهو يقول: «طالع لمين يا ابن الكلب، مش عارف».

كنت أبتسم وأنا ألحظ لذة إجابة هذا السؤال الاستنكاري في نفسه. ولكن النبرة المفضلة لي كانت النبرة اللائمة المازحة التي يستسلم فيها لاختلافي عنه بتذمر مرح، يترك لي مساحة واسعة من الثقة والارتياح أفتقدهما إلى الآن عندما أفكر أن أبي ليس راضيا عما

t.me/qurssan

أفعل، حتى وأنا أكتب شيئا على فيسبوك وأفكر أنه لن يكون راضيا عن الهجوم العنيف اللفظي أو البذاءة الموجهين لمن هم في السلطة أو قريبا منها، وأفكر في عتابه الدائم لي إلى الآن في اللقاء الأسبوعي للأسرة: «ما تخليهمش يمسكوا عليك حاجة بسهولة، بلاش القباحة والشتائم، ألفاظ لا تليق بك يا عمرو» كان أحيانا ما يستخدم «عمرو الحقيقي» المهذب هنا، ويقول بهدوء عاقدا حاجبيه: «الشتائم تُخرج النقد السياسي من إطاره الموضوعي»، كان أحيانا ما يشعل سيجارة هنا ويكمل وهو لا يزال عاقدا حاجبيه: «بالإضافة لأنهم فعلا...» ـ ويرمي بلفظ أكثر بذاءة مما لامني عليه ـ « ... وكلنا عارفين فأنت ما بتقولش جديد».

ينفجر ضحك هيستيري مني ومن إخوتي، وتضحك أمي محرجة وهي تنبه أبي: «يا عزت!».

كانت البذاءة إحدى الأشياء التي لم يكن مسموحا لي، ولإخوتي، أن نشبهه فيها، ولذلك فقد احتفظنا في صناديقنا السرية بمخزون ثري وإبداعي من تنويعاتها، نقدر أهميتها في الدعابة والمزاح اللاذع ولا نستخدمها كثيرا في الحياة اليومية، ونادرا ما ألجأ إليها في الكتابة حتى على فيسبوك، وإن كنت أحيانا لا أستطيع منع نفسي من ذلك وأنا أفكر أن أبي سيراها وسيعاتبني، وأتمنى أن يكون العتاب بالنبرة اللائمة المازحة لـ«يا ابن الكلب»، التي ستمزج هنا بين لومه على استخدام البذاءة كما يفعل، ولومه على استخدامها في مواجهة غير محسوبة كما لا يحب أن يفعل. لوما مرحا مستسلما للتشابه والاختلاف بيننا.

t.me/qurssan

٧

٢٠٠٠

«مش عاوز أبقى زيّك».

أفلتت مني ذات مرة، مرة واحدة فقط، في لحظة مواجهة مع اختلافاتنا التي يضيق بها. كان ذلك شيئا يتعلق بأين كنت ومتى عدت من هناك، لا أذكر، ولكني أذكر جيدا أنه كان بيني وبين الحائط المعلق عليه الساعة السوداء ذات العقارب الذهبية، وكأن ما تشير إليه العقارب متورطا فيما نحن فيه، فتظهر الساعة خلف وجه أبي الغاضب في الكادر كزاوية مقصودة للكاميرا. وفي هذا المشهد كان يعاتبني قائلا إنه إن كنتُ أود أن أكون مثله يجب أن أفعل كذا وكذا.

في العادة أحاول أن تمر مثل هذه المواقف بأقل قدر من المواجهة الفعلية، لم يحدث أبدا أن تجاوزت مع أبي حدود اللياقة، لم يحدث أبدا أن صوتي احتد في مواجهته، قليل من العناد المراوغ، استسلام تام لما أظن أنه لا يمكنني تجاوزه وأنا أعد الثواني حتى الوقت الذي يمكنني فيه أن أختبئ باعتداد مستسلم في غرفتي، ولكنني هذه المرة قلتها: «مش عاوز أبقى زيّك».

ارتباكه أمامها أرخى تعبيرات الغضب على وجهه، مسحة من الحزن والمفاجأة، جعلتني أندم، ولكني قلتها وانتهى الأمر.

أتبعتها فورا: مش قصدي يا بابا، بس مش عاوز أبقى زيّ حد، حتى النبي محمد.

t.me/qurssan

كان ذلك اعتذارا ساذجا ومزريا، تجاهله وقال بشيء من الارتباك المعاتب ولكن في اعتداد: «إنت تطول تبقى زيّي».

سيطر سريعا على مشاعره كأب حكيم، لا ينبغي له أن يخوض الحوار كرد فعل أو أن يشعر بالإهانة، وقال وقد عادت ملامحه لاستقرار ما: «أنا عاوزك تبقى أحسن منّي».

من الصعب على الآباء أن يتجاوزوا النزعة الإلهية في أن يكون أبناؤهم كما يرغبون، مثلهم، غيرهم، أفضل منهم. حتى إن النزعة الإلهية لتشكيل حياة البشر، بعد خلقهم المفترض، هي مجرد رجاء أو مجاز للنزعة الأبوية التي تشكلهم فعليا.

من بعيد، كنت أبدو دائما، كابن مطيع ومهذب وهادئ وممتثل ومتدين ورياضي، لا يجب أن يكون لدي مشكلة مع الأبوة ورغباتها، وكان هذا صحيحا على مستوى ما، إلا أن ذلك كان واجهة أزمة شديدة خبأتها في نفسي، وفي غرفتي. كنت مندهشا منها أنا أيضا، مندهشا من ذلك الاختلاف الذي يبدو بعضه فطريا ويبدو بعضه كرغبات أو أهواء لا أستطيع مقاومتها وهي تأخذني بعيدا عنهم.

ورغم أني لم أطور ذلك لتمرد عات أو مواجهات عنيفة، إلا أن المواجهات المتوترة التي تطفو على السطح أحيانا قد جعلتني فعلا مندهشا وأشعر بالغرابة، بعيدا عن الشعور بالدراما أو القهر، لقد كنت طفلا مدللا في نهاية الأمر، كان تحديدا شعورا بالاندهاش من تلك المواجهة بين الرغبة الأبوية وبين غرابة وجودي وإرادتي اللذين يعاندانها، بين ذلك التوتر الشديد داخلي بعيدا عن رضا الأب، الذي يجعل وجودي وإرادتي يسترخيان، والاندهاش والغرابة أني لن أكف عن السعي إلى هذا الرضا بدون الامتثال إليه.

t.me/qurssan

٨

١٩٩٩

ما زلت أذكر متى تحديدا بدأت أشعر بالسخرية من فيروز وهي تغني: «أولادكم ليسوا لكم، أولادكم أبناء الحياة» من أشعار جبران خليل جبران، كان اللحن رديئا جدا وكأنها تهتف بشعار في مؤتمر.

كنت قد افتتنت بعبارة جبران لفترة وأنا في مرحلة طفولية متململة من الأبوة وسلطتها وغارقة في الروح الغنائية الحالمة، لكن في لحظة أخرى عندما ذكرتني فيروز بهذه العبارة كنت قد أنجزت كثيرا من التأمل في غرفتي في إشكالية الأبوة، كما أني قرأت بعض الأشياء البنيوية وما بعد البنيوية لميشيل فوكو وليفي شتراوس، فصار ساخرا جدا بالنسبة لي أن يكون تحررا أن نكون أبناء الحياة، وكأن هناك فضاءً حرا تماما من الشروط والقيود اسمه الحياة، كأن هذه الحياة وسط الطبيعة أو وسط الناس ليست ملأى بما هو أكثر تسلطا ورغبة في الحصول على الامتثال من الآباء.

إننا نولد لآبائنا، امتلاكهم لنا واستئثارهم بنا بدلا من أن يتركونا لأبوة الطبيعة، هو ما يجعلنا أناسا، واستئثارهم بنا بدلا من أن يتركوا لآباء آخرين هو ما يجعلنا أبناءهم. في النهاية ليس لنا ونحن كائنات مولودة للتو، ولفترة طويلة بعدها، أي خيار. عناية الأبوة تمتلكنا وتشكلنا. ولكن ذلك البروز المدهش والغريب للوجود الشخصي وللإرادة يدفعاننا ليس إلى الانطلاق بحرية، ولكن إلى الانصياع

t.me/qurssan

للتشكل أمام آباء آخرين، تأخذنا إليهم أقدار أو أهواء أو رغبات أو إرادة غامضة، ليشكلونا بدورهم وهكذا. لتصير أقدارنا وأهواؤنا ورغباتنا وإرادتنا أكثر تركيبا وتعقيدا وأكثر إدهاشا من أن نتجاهلها، وربما أيضا من أن نعتد بها كثيرا ونقدسها وكأننا آلهة وجدنا أرواحنا جميلة وحرة وبها إرادة مقدسة ذات جوهر باهر.

ربما كان جبران يدعو الآباء للامتثال هنا لحقيقة أن آباء آخرين سوف يشاركونهم أبناءهم الذين طالما امتلكوهم، يضفي تعبير «الحياة» هنا منحى شاعريا جميلا مخادعا على الآباء الآخرين، مسحة جمالية تناسب إغواء الآباء الجدد الذي يغري بخيانة الآباء القدامى.

٩

١٩٩٠

لم يكن لأبي مكتب لأعماله الخاصة معظم الأوقات، بعيدا عن مكتب عمله الحكومي، لذا كان مألوفا لفترات طويلة رؤيته وهو يجلس أمام طاولة السفرة بالبيجاما أو بالملابس الداخلية، بحسب الوقت في السنة، ويضع عليها لوحة خشبية عريضة عليها طبقات من الورق الشفاف تتابع عليها مراحل خروج تصميماته إلى الوجود بخطوط من الحبر الثخين وهو يدخن ويسمع الكاسيت.

قضيت أوقاتا طويلة في تأمله وتأمل خطوطه، تعلمت مبكرا أشياء عن المنظور والظل والمساقط المختلفة للأجسام، كما أنه

t.me/qurssan

قضى وقتا طويلا بصبر ومزاج رائق يشرح لي وأنا في العاشرة من عمري تقريبا، بينما هو منشغل جزئيا في الرسم، أغنية ناظم الغزالي التي تبدأ بموال: «سمراء من قوم عيسى من أباح لها قتل امرئ مسلم قاسى بها ولها»، بكل ما فيها من الزوايا والظلال.

كنت أرسم جيدا أنا الآخر، أو نشأت كذلك، احتفظت طريقتي في الرسم بالخط الثخين الذي يروح ويجيء مستسلما لمراوغة حواف الأشياء، التي يجعلها الرسم الهندسي المدرسي حادة وواضحة وبلا أي سماكة وفاصلة بين سطحين بلا لبس. لاحقا قضيت وقتا لا بأس به في كلية الهندسة أحاول التخلص من تلك العادة، المرور ذهابا وإيابا على الخط الواحد، التي تجعل الناس تظن أني مرتبك أو متردد أو أني أحاول أن أعيد الرسم، بينما كانت تلك ببساطة هي الطريقة التي تعلمتها يدي، في الغالب بتأثير من أبي، ولكني لا أذكر أني حاولت تقليد خطه في الكتابة رغم أن خطه كان جميلا فيما يكتب داخل اللوحات وعلى هوامشها.

في المدرسة انتبهت إحدى المدرسات لتغير خطي عندما غيرت رفيق الدكة واستنتجت ببعض النباهة وبعض الحماقة المتسرعة أني أقلد خط من هو بجانبي، وقالت ضاحكة وسعيدة باكتشافها الذكي: يا عمرو إنت بتقلد خط اللي قاعد جنبك، مالكش خط!

غبية. كان واضحا أني أتأثر فعلا بخط كل من يجلس بجانبي لفترة طويلة، غير أن خطي يكون مختلفا وفيه تأثيرات ممتزجة، في النهاية أعترف أني لم أصل في أي مرحلة لأن أقول إن خطي كان جميلا، ولكنه كان مميزا في معظم الأوقات، ولم يبد لي في

t.me/qurssan

أي وقت أني قد أصبحت مستقرا على خط ما أسميته خطي، بدت لي فكرة غريبة عندما استفزتني المدرسة بملاحظتها، ولكني فعلا تأثرت فترة بالتكعيبية الحادة لخط ياسر، وفترة بالنمنمة المنمقة لخط سمر، وبالغموض المهمل لخط عمر، وبالتكويرات المتقاطعة لخط واحد لا أذكر اسمه، وكنت أكتب بتنويعات مختلفة في أوقات مختلفة وأنسى بعضها ويظل بعض تأثيرها معي، لم أكن جيدا في إتقان الخطوط العربية المعروفة، ولم أحب حصة الخط، ولكني ظللت طوال الوقت حرا في اللعب بخطي وحرا في التأثر بخطوط غيري، يشبه الأمر وقتها ما أفعله الآن من اختيار الخط المفضل في برنامج معالجة النصوص على الكمبيوتر، غير أنني وقتها كنت أشارك في اختراع تلك الخطوط الغرائبية غير المنضبطة، نسيت يدي تلك العادة مع الكمبيوتر، لكن ما زالت لديّ مشاكل مع البنوك لأنني أحاول أن أتذكر أي لعبة استخدمت وقت توقيعي أوراق إنشاء الحساب.

انتبه أبي بعض المرات لتغيرات خطي، وسألني لماذا أكتب هكذا بخط مكوّر أو خط مكعب، وبدا له الأمر طريفا، ولكنه لم يكن يعلم شيئا عن بعض مصادر هذه الخطوط، ولكن ما استفزه هو تغيرات في سلوكي بدت له دخيلة.

كان يحرص على التعرف على أصحابي الذين يأتون إلى البيت، يجري معهم حوارات قصيرة وسريعة ولكنها تحاول أن تكون كاشفة بأسئلة مقتحمة تتخفى وراء المزاح والذكاء الاجتماعي لأبي، أولا تتخفى. ربما تمزج حقا بين الود وحب الاشتباك مع

t.me/qurssan

الناس في العموم بالرغبة في الاطمئنان عليّ واستكشاف أصدقائي ومعارفي. كانت أفكاره وأحكامه على أصدقائي مصدر أحكام أخرى عليّ فاجأتني وأشعرتني بقدر من السوء أن تكون فكرته عني كذلك: هذا التمرد على المدرسين يشبه تمرد أحمد، هذا التشدد في الدين يشبه تشدد محمد، هذا الولع الزائد بالموسيقى والاهتمام الزائد بالمظهر مصدره عمر.

كانت تلك تعليقات مختزلة وسطحية ومهينة لطريقة تفاعلي مع الناس التي كانت تبدو لي ذكية، ليس لأني أمدح نفسي ولكن لأني أظن أن في ذلك بعضا من محاكاتي لذكائه الاجتماعي. ربما لم يستطع تفهم ذلك التفاعل المتقلب لأنه كان مختلفا بوضوح عن قوة شخصيته وثباتها على الأرض، أتخيله طفلا راسخ الطباع مثلما هو الآن. لا أعتقد أنه كان لدي في أي وقت تصور واضح ومتصلب عن ذاتي، ويعجبني ذلك الآن.

من موقعه القوي والثابت هذا أطلق أحكامه تلك التي مست صورة حكمته وبصيرته عندي. لم أرد عليه في الغالب لأحاول الدفاع عن نفسي وأقول إني كنت قائدا ومؤثرا في أصدقائي ومعارفي، لقد كنت في مساحة مسترخية بين الريادة والاتباع، بين الاسترخاء لأركان من السلوك جعلتها بيتي في العالم وبين التجريب الهادئ والزيارات المتقطعة لما هو بعيد عني، لتبدو تغيراتي كرحلات بطيئة متمهلة أشعر، ويشعرون، بالمفاجأة أنها قد أرسلتني بعيدا جدا.

قُدت أصحابي لبعض المغامرات وانسقت وراءهم في بعضها، كما أني كنت رائدا لعوالم جديدة مهاب الجانب بالنسبة لإخوتي

t.me/qurssan

وأولاد العائلة، وكان أبي يعلم بعض ذلك، ولكني أعتقد أن حكمة أبي اهتزت من تأثير الغيرة من تلك «الأبوة الجديدة» التي تتأثر بها حياتي خارج البيت بعيدا عنه، كان يستكشفها ويحاول تحليل تأثيراتها واتجاهاتها، وتحت تأثير الغيرة نسي ذلك العامل المدهش والغريب الذي يكمن فيّ وفي فاعليتي، أو بالنسبة له هذه فاعلية غريبة وغامضة نشأت في وليده الذي أحضره إلى العالم، وأخذته بعيدا عنه وعن خطته له.

إلى الآن ما زال يحاول الاستكشاف محافظا على فضوله وسؤاله الدوري: «من هم أصدقاؤك الآن؟ من هم رفاق عملك؟ هل أعرفهم؟».

هذه الأسئلة أصبحت محاولات لا طائل منها لمعرفة أي شيء عن الابن الذي ذهب بعيدا، ببطء، بدون أن ينتبه متى وكيف سلك هذه الطرق. منذ أن لمست غيرة أبي على أبوّته تعلمت إخفاء بعض أصدقائي عن أبي، وتعلمت أن أجعله فقط يرى ويعرف من أعتقد أنه لا مشكلة في أن يعرف أنني أعرفه، أو أحب أن يعرف أني أعرفه، كانت تلك أولى مناوراتي للاختباء من الأبوة وغيرتها، ليس فقط لأدع نفسي أذهب مع تأثيرات جديدة بسلام، ولكن أيضا لأنني ابن مهذب يحب أباه، والتوتر بينهما ينزع عنه ارتياحه في العالم. لقد كان ذلك مرضيا ومريحا لكلينا معظم الوقت، فلم لا.

t.me/qurssan

١٠

١٩٩٠-١٩٨٥

هناك نقطة زمنية افتراضية وغير محددة يمكنني أن أقول إنني تحولت فيها من الامتثال التام إلى الاختفاء الذي كان ظاهره الامتثال.

الطفل الذي كان يُنهى عن شيء فينتهي أو يؤمر بشيء فيفعله أصبح يمتثل ظاهرا ويختبئ ليلبي أهواءه الخاصة. إذا كان علم النفس يحدد نقطة بداية الوعي بالذات بالانفصال عن الطبيعة وإدراك الشخصية، فإن انفصالا آخر عن الامتثال هو نقطة مفصلية أخرى تم إخفاؤها بقدر من العناية أخّرت وقللت من المواجهات التي يمكن أن تحبط العملية بأكملها أو تعرضها لخطر المعارك العنيفة.

بداية انفصال آدم عن الملائكة ـ الممتثلين بإطلاق ـ كما يرويها القرآن كانت عندما شاء الله و«علّم آدم الأسماء كلها»، عندما علمه اللغة كإمكانية وبداية لعبة لا تنتهي، تبدأ منها كل ألعاب الأفكار والأخلاق والاجتماع، أصبح لإرادة الإنسان صوت، أو أن الصوت واللغة ابتكروا للوجود الإنساني إرادة أكثر تركيبا من الاندفاعات الحسية، مع تلك الإماكنية أيضا بدأ التآمر والكذب، وإلا فكيف يمكن أن يحدث ذلك بدون اللغة والرمز.

قالوا لي إنني أصبحت ممتلكا لناصية اللغة مبكرا بما يسمح لي باستكشاف الكتب والمجلات، أو ربما هكذا يظن كل الآباء أن أبناءهم لديهم دائما معجزات. فرحتهم تلك التي شجعتني على مطاردة اللغة أكثر وكل تلك المطبوعات التي تحتويها قادتني إلى اكتشاف مؤامرة ما.

t.me/qurssan

بدأت أنتبه للكتب والمجلات التي توضع في أماكن بعيدة المنال، مع إيماءات رمزية تصحبها عبارات كاذبة بالطبع أن هذا الكتاب أو هذه المجلة ليست ملكنا ويجب ألا أقترب منها حتى نعيدها لأصحابها. انتبهت للمؤامرة وأبديت امتثالا كاذبا لها، وبدأت استغلال بعض الساعات الطويلة للأرق في الليل، تلك الساعات التي تفصل بين نوم أمي وعودة أبي المتأخرة من الخارج، واكتشفت بنفسي.

مجلات ديكور أجنبية تحتوي على أجساد أنثوية عارية مع صور غرف النوم ودورات المياه وحمامات السباحة، بعض الروايات ومجموعات القصص التي تحتوي عناوينها على إيجاءات غير مرغوب فيها للأطفال مثل «لحم رخيص» ليوسف إدريس، وكنت مندهشا أن أبي قرر أن من بينها «تفسير الأحلام» لابن سيرين، ربما لأني أبديت شغفا بما أحلم به وبدا لهم ذلك الشغف مبالغا فيه، أو ربما لأن قلقوا إلى أين ستأخذني تفسيرات ابن سيرين التي كان بعضها غرائبيا.

مع مرور الوقت كنت أجيد القراءة ولكني كنت ما زلت أواجه مؤامرة اللغة، تلك الرموز التي لم أعرف مدلولها بعد، ولكن يعرفها آخرون، وفي الكتب المخبأة تحديدا كانت تلك الرموز تزداد كثافة وغموضا.

وصل استشكافي ذات ليلة إلى مجموعة كتب مصفوفة بعناية إلى جانب بعضها البعض، عناوينها متشابهة ومتقاربة كإخوة أسماؤهم متاغمة، كانت كتبا تتحدث عن تربية الأولاد: أكثر من

t.me/qurssan

كتاب عن «تربية الأولاد في الإسلام» وبعض الكتب من وجهة نظر علم النفس وخبراء تربويين. لقد اكتشفت المؤامرة الكبرى.

١١

١٩٩٢

لم يكن هناك داع في أي وقت لأن يأخذني أبي إلى غرفة النوم ويغلق بابها لنتحدث في خصوصية إلا في أوقات العتاب والعقاب على خطأ فادح، وتلك المرة لم يبد لي أن هناك أي خطأ.

أجلسني أبي وجلس قبالتي وحدق فيّ قليلا، ربما يتأمل غرابة ما سوف يفعله. قال لي إننا لم نتحدث سويا من فترة طويلة، نريد أن نكون أصدقاء، أنا هنا لتحكي لي عن أي شيء غريب ومحير تجده في حياتك، لا يوجد أحد يخاف عليك ويحبك مثلما أفعل، لماذا لا تستشيرني في أي شيء؟

بدا لي ذلك غريبا غرابة ذلك الولد الذي تعرفت عليه في أول أيام المدرسة وقال لي: أنا بحبك، عاوزين نبقى أصدقاء. واحتضنني. قلت له: طيب. ولم نصبح أصدقاء.

ولكني تذكرت أن ما يحاول أن يفعله أبي مكتوب في كتب التربية تلك، أو ربما أباه فعل معه ذلك، هل فعل؟ لا أظن.

قلت لأبي مبتسما: طيب.

فبدأ يحمسني أن أقول أشياء، وأنا أفكر بسرعة فيما ينبغي أن أقوله وما لا ينبغي أن أقوله، فاجأني بالسؤال عن «البنات»، كيف أشعر

t.me/qurssan

تجاههن، هل أفكر في بنت بعينها، من هن صديقاتي المقربات. قلت له ما قالته لي أمي: زي إخواتك. إذن: زي إخواتي.

سألني من أختك المقربة بينهم، فقلت له بسرعة اسم البنت التي يتوقعها، أخت زميلي التي شاهدني أمزح معها بمرح زائد عن عادتي في الشارع أمام البقالة أسفل بنايتنا، وقتها كانت تنمو بيننا صداقة وألفة يتخللها بعض التوتر بين ولد وفتاة يخطون خطواتهم نحو الذكورة والأنوثة. كنت أعرف أنه لاحظ ذلك، كان لابد من الاعتراف لكي أنال ثقته باعترافي وأحكم مؤامرتي: أبعد قلقه عن هالة، الرفيقة الأولى لطفولتي، وأيضا لكي أخفي قصة «الفتاة الكبيرة».

كانت تلك الفتاة الكبيرة، الجامعية وقتها، قريبة الجيران. تأتي كثيرا لتلعب معي وتأخذني إلى سطح البيت المجاور حيث غرفة وحيدة مفتوحة النوافذ على الأفق من كل الاتجاهات، لم تكن هناك بنايات أعلى من بنايتنا، كانت تقول لأمي أنها لا تريد أن تذاكر وحيدة وستأتنس بي وتراقبني وأنا أعمل الواجب المدرسي، كنت أحب صحبتها أنا الآخر، ولم أكن أفهم تماما ما كانت تفعله عندما ترتدي قميص النوم القصير الأحمر وتبدأ في اللعب الجسدي معي، لا أذكر كثيرا من التفاصيل، ولكن بدا الأمر ممتعا ومثيرا أكثر في نهايته عندما أمسكتني من كتفيّ أول مرة حدث ذلك وقالت لي وهي تعض على شفتها السفلى بدلال وتغمز بعينها: «إوعى تقول لحد، دا سر بيننا».

كان ما يحدث بيننا يشبه رموز اللغة التي لم أكن أفهمها بعد، ولكنه كان لطيف التأثير عليّ، كنت أعود إلى البيت ومعي بعض الأسرار مع فتاة جميلة تكبرني بنحو عشرة أعوام. ولم أخبر أحدا.

t.me/qurssan

كان واضحا أن أبي كان يقصد أن أخبره عن مثل «تلك الأمور». ولكني وعيت إن تلك الأمور تحديدا يخبئها الكبار ولا يتحدثون عنها، وأن تلك طبيعة الأمور.

١٢

١٩٩١

عندما اكتشفت أمي كراسة الرسم التي خصصتها لنعيمة عاكف كانت مشاعرها مزيجا من الخجل والدهشة السعيدة والغيظ المرح، ربما لأن رسومي تظهر تطورا ملحوظا، أو لأنها اكتشفت أن خطتها في تغيير قناة التلفزيون أول ما تظهر راقصة قد تم اختراقها.

كنت قد خصصت هذه الكراسة لمحاولاتي رسم الراقصة نعيمة عاكف، وفي الخلفية مشاهد من أفلامها، الفرقة الموسيقية، السيرك، الحجرة الصغيرة والبيانو وشكري سرحان وهي ترقص على غناء حورية حسن «من حبي فيك يا جاري» في فيلم «بحبك يا حسن».

أشاد أبي بدقتي في رسم تفاصيل الجسد الأنثوي وضحك كثيرا وطبعا قال: «يا ابن الكلب»، ببهجة ذكورية كبيرة.

كنت قلقا من رد فعلهم، كنت لا أزال غاضبا وممرورا من فقدان كراستي الأخرى التي رسمت فيها صورا كثيرا لهالة، صديقة طفولتي التي تصغرني بعامين.

طلبت أمها من أخي أن يحضر الكراسة فظن أنها تحب رسمي

t.me/qurssan

وتريد أن تتفرج عليه، ولكنها أخذتها ولم تعيدها إليّ، كما أنهم أخذوا هالة أيضا.

كان ذلك بعد محاولات بيني وبين هالة لاستكشاف اختلافات جسدينا، تقليد بعض المشاهد العاطفية من الأفلام، فعلنا ذلك في بلكونتنا وبلكونتهم، ووشت بنا ساكنة في العمارة المقابلة. وقرر الأهل المصدومون أننا كبرنا بما يكفي لكي نتباعد.

جلست جلسات قصيرة متوترة مع أبي وأمي، كانا متوترين وهما يخبرانني أن البنات إخوتي ولا يصح أن أقلد معهم ما أشاهده في الأفلام لأنه عيب، أشياء تخص الكبار، كما أنها حرام، وليس هذا وقتها، ولا تصح، سيأتي وقتها، سأكبر وأفهم.

كانا مرتبكين وكنت مرتبكا، كانا يحاولان التفكير في رد فعل مناسب، عقلاني ومتفهم وحازم، وكنت أفكر أن سبب كل ذلك أنني لم أختبئ أنا وهالة جيدا.

الفتاة الكبيرة أتقنت إخفاء ما بيننا، كفتاة كبيرة تعرف جيدا رموز عالم الكبار، ما يجب كشفه وما يجب إخفاؤه. مثلما يغلق أبوي غرفة النوم أحيانا بالمفتاح من الداخل بعض الأوقات، مثلما ضحك جاري وزوجته في العمارة المقابلة عندما اكتشفا أني أراهما من البلكونة، فقام الرجل وأغلق الشباك، مثل إخفاء تلك الكتب التي لا أفهم ما يدور فيها بين الرجال والنساء في الأرفف العالية من مكتبتنا.

لقد كانت هالة صديقتي وفقدتها على أبواب عالم الكبار لأننا لم نحسن إخفاء بعض الأشياء عن الناس، وظلت الفتاة الكبيرة

t.me/qurssan

صديقتي، بشكل ما، لأن ما بيننا كان بعضه مختفيا، لقد أخفيت بعض أصدقائي «المقلقين» عن أبي وأمي، وأخفينا أنا وأصدقائي عن الآخرين أشياء كثيرة.

عندما أخذني أبي إلى الغرفة وأغلق الباب، وقرر أنه قد حان الوقت لنخفي بعض الأشياء ما بيننا عن الآخرين، لنكن أصدقاء، لم يكن يعلم أني أخفيت عنه أنني قرأت في ذلك الكتاب الذي أخفاه عني أن على الآباء أن يكونوا أصدقاء لأولادهم، لكي يعرفوا ما يخفي الأولاد ما بينهم وبين أصدقائهم، وينتبهوا لتأثيرات هؤلاء الأصدقاء. يخفي الكبار مؤامراتهم ليشكلوا بها الأبناء، ويخفي الأبناء مؤامراتهم ليكونوا أبناء تلك المؤامرات الأخرى.

الأصدقاء آباء جدد، الآباء أصدقاء قدامى.

١٣

١٩٩٥

بالملابس والأحذية الرياضية، كنا في بيت الشيخ نتلقى أولى دروس العقيدة السلفية، لم نعد من عوام المتدينين الذين يحضرون الدروس والمحاضرات المفتوحة، رأى المشايخ فينا شيئا واعدا والتحقنا للدراسة على يدهم في فروع مختلفة من علوم الشريعة في جلسات مغلقة في البيوت.

كان مشايخنا من ذوي الماضي مع تنظيم «الجماعة الإسلامية»

t.me/qurssan

الذي سحقه الأمن وأخضع ما تبقى من دوائره لرقابة صارمة، ولم يكن مسموحا لهم عقد حلقات التدريس في المساجد ولا الخطابة على المنبر يوم الجمعة إلا وفق تفاهمات صارمة مع ضباط الأمن.

قال لنا الشيخ في أول جلسة إن الأمر ينطوي على بعض الخطورة، فهو قد يؤدي إلى أن تكون لنا ملفات في جهاز أمن الدولة، ملفات أكثر جدية من الشباب الذين يصلون في مساجد تجمعات السلفيين أو يحضرون المحاضرات العلنية المسموح بها، قد يؤدي الأمر لاعتقالنا واستجوابنا أحيانا، التعذيب وارد. قال المشايخ إننا سنتبع بعض الاحترازات، لن يكون للدرس موعد أسبوعي ثابت، سنغير اليوم خلال الأسبوع، وسنغير الموعد خلال اليوم، مرة بعد المغرب، مرة بعد العشاء، ليبدو الأمر أنها زيارات متفرقة وليست جلسات دراسية، ولكن كل ذلك لا يمنع تماما احتمالات وصول الأمر لتحريات الأمن.

طلب منا الشيخ الحصول على إذن صريح من الوالدين، وقال لنا إنه لا يجوز الكذب عليهم حتى من أجل طلب علوم الدين، وإننا نحتاج إلى دعمهم في حالة حدوث أي مكروه. ثم نقل بصره بين أجسامنا وأرجلنا وسألنا لماذا نرتدي الملابس الرياضية.

عندما ذهبت إلى أبي وطلبت منه الإذن بحضور جلسات خاصة في العلم الشرعي. اعتدل في جلسته ونظر في الأرض طويلا، كان يكبح غضبا ما، يستعيد وقائع التوترات ما بيننا منذ بدأت أقترب من السلفيين في المنطقة وأرتاد مسجدهم، يستعيد وقائع توتره

t.me/qurssan

الشخصي، بين رعبه وخوفه عليّ من الاعتقال والتعذيب وبين بعض الاحترام والإكبار أن ابنه قرر أن يكون «شيخا» ـ كما يطلق العامة على السلفيين ـ أو أن يكون «ملتزما» ـ كما يطلق السلفيون على أنفسهم ـ والآن «طالب علم» يدرس علوم الشريعة بشكل شبه نظامي. كان يحاول أن يستعيد بعض ما ألزم به نفسه من أن يعطي لأولاده الحرية ويحترم خياراتهم، يستعيد تلك القوة بداخله التي لا تحتاج لسند أو تبرير في عزمها على توجيههم وتشكيلهم وفق ما يراه الصواب والأصلح والأكثر أمنا.

كبح في نفسه صرخات أطلقها سابقا: «لماذا السلفيين تحديدا؟ متشددون. لماذا ليس الصوفية؟ يمكنني أن آخذك إلى مشايخ في الأزهر، معتدلون ويعيشون في أمان. لم لا؟». استعاد في نفسه قدرا من الاحترام للسلفيين، الذي يكنه الكثيرون من المختلفين معهم، باعتبارهم متدينين أكثر أصالة يواجهون رخاوة وطراوة المجتمع بشجاعة ويتحملون الأذى والمطاردة، رفع رأسه وقال لي إنه أعطاني الحرية، ويعرف أني مسئول وذكي، وأن الله يحرسني، ولكن يكفي أني أرتاد المسجد والدروس والمحاضرات العامة، ولا حاجة للمزيد، أيضا لكي لا تشغلني أكثر عن دراستي خاصة أنه بعد إجازة ذلك الصيف تبدأ السنتان النهائيتان في «الثانوية العامة».

لم أناقشه، احترمت كل ما رأيته يعاني في كبحه، كانت واحدة من اللحظات المؤهلة أن تكون إحدى المواجهات المتوترة ولكنه قطع طريقا طويلا نحوي، شعرت نحوه بحب بالغ، وبتعاطف كبير مع مأزق الأبوة، تعاطف أخرجني من مخبأي لكي أضع نفسي

t.me/qurssan

مكانه وأتخيل خوفي على ابني وماذا كنت سأقرر لو كنت مكانه، غالبا كنت سأفعل مثله تماما. ولكن وقتها لم يكن لديّ أدنى شك أو تردد في أني لن أمتثل لقراره وسأبدأ الدروس.

بالملابس والأحذية الرياضية نزلنا من بيت الشيخ، صلينا العشاء في مسجد قريب وذهبنا إلى الشارع الخالي الذي نلعب فيه الكرة أحيانا، لعبنا لدقائق وعدنا إلى بيوتنا نتظاهر بالتعب.

- «أين كنت يا عمرو؟».

- «كنت بالعب كورة».

هل تحتسب عند الله كذبة؟

١٤

١٩٩٥

هذه المرة أنهينا الدرس مبكرا ولعبنا مباراة حقيقة وطويلة. انتهينا من المباراة وكنا في غاية التعب، توجهنا إلى حيث البقالة القريبة واشترينا بعض المثلجات وجلسنا على الرصيف في الشارع الهادئ. قال أحدنا: «حاسس لما أرجع البيت إني هاكون باكذب برضه لما أقول لهم إني كنت بالعب كورة».

ضحكنا، وفتحنا نقاشا دينيا حول الكذب، وحول «المعاريض» المباحة شرعا، تعني «المعاريض» ألا تقول الحقيقة، أن تخبئ الحقيقة المطلوبة، الحقيقة موضع التوتر، أن تبدي حقيقة أخرى أو تبدي جانبا منها يظهرها كأنها شيء آخر، بشرط ألا يسبب ذلك ضررا أو أذى بأحد.

t.me/qurssan

بدأ نقاشنا الشرعي يتجاوز الأفكار التراثية ويتجه إلى بعض المزاح والتلاعب، بدأنا نتحدث عن شَبَه الكذب على الآباء بالكذب على الزوجات عند الغزل، هناك علاقة حب وتعلق يشوبها الخوف، لا بد من بعض الاختباء في اللغة، إرضاء الزوجة وتسكين قلقها بخصوص ما يعتقده الرجل بخصوص جمالها، سعادته معها، حبه لها، والعكس. هل يمكن أن نسحب ذلك على الآباء، ذلك الحب الذي يشوبه الخوف والغيرة من العلاقة مع «الآباء الآخرين»، هل يمكننا أن نعد الكذب على الآباء من ذلك القبيل.

انغمسنا أكثر وتحدثنا عن أن الكذب عليهم يمكن أن يكون من باب الكذب على الأعداء وقت الحرب، تلك الرغبة في السيطرة أحيانا يبدو أنها تتجاوز الحب، تبدو كرغبة محمومة في التحكم في تلك المخلوقات التابعة بالشكل الذي يرغبونه ويحقق لهم السعادة، أين هي إرادتنا إذن، إنها الحرب. البعض اقترح أن ذلك ينسحب على الشيخ أيضا لأنه أب آخر أو لأنه من جيل الآباء.

المنسوب للنبي محمد أن الكذب لا يجوز إلا في ثلاث حالات: الحرب، والأحاديث الحميمة بين الرجل وزوجته، والإصلاح بين الناس.

حتى الحالة الأخيرة تحدثنا أنها تنطبق على الآباء، لأن الكذب عليهم من قبيل إصلاح العلاقة بين الأجيال التي سيملؤها الصدق صراعات وتوترات. طبعا كمتدينين مخلصين أضفنا أننا سنلتزم بالضابط الشرعي أنه لا يجوز ذلك إن كان فيه أذى أو ضرر لهم. ضحكنا لأننا اكتشفنا أننا فيما يخص «الدروس السرية» نكذب لما فيه غالبا أذى وضرر محتمل لنا نحن، ولكننا طبعا كنا نمتلك شجاعة من يفكرون في إصلاح العالم.

t.me/qurssan

١٥

٢٠١٥

يعترض كانط على الفكرة القائلة إن بعض الأكاذيب ليست منافية للأخلاق السليمة إن كان لا يترتب عليها ضرر، يقول إن هناك نوعين من الضرر: ضرر مادي وضرر صوري. الضرر المادي عند كانط هو الضرر المباشر الواقع على شخص أو جماعة من جراء إخفاء الحقيقة عنه أو عنها، أو الإيهام بحقيقة أخرى، أما الضرر الصوري فهو انتهاك التوافق الإنساني المفترض على الصدق عند استخدام اللغة، وهو عند كانط ضرر يصيب الإنسانية كلها عند اقتراف كذبة لا ضرر منها، هو ضرر يهدد الكرامة الإنسانية القائمة على الحرية في استعمال العقل وفي اتباع الأخلاق بناء على معرفة الحقيقة، فالكذب يهدد الكاذب بفقدان الحرية والكرامة لأنه يتهرب من حقيقة ما، كما أنه يهدد المتعرض للكذب، حتى إن لم يقع عليه ضرر مباشر، أنه لن يستطيع استعمال عقله والحكم الأخلاقي على الأمور بشكل جيد لأنه تم تضليله عن طريق الكذب.

ذلك المنظور الكلي والعالمي والإنسانوي جميل، يضع نصب عينيه تلك الرغبة في أن يكون العالم كله مكانا متناغما وأخلاقيا وعقلانيا، خاليا من الصراعات الحادة المأزومة.

حتى في أوقات الصراعات المحتدمة يمكن أن أتفق مع رؤية كانط، وغالبا ما أفعل ذلك لأني إنسان أخلاقي في العادة وفي المجمل، ولكني أريد أن أجري تعديلا أكثر واقعية على تصور كانط

t.me/qurssan

عن الضرر الصوري الواقع على العالم من جراء الكذب، سنقسم العالم إلى نوعين من الدوائر:

النوع الأول من دوائر العالم، هي دوائر تضمنا مع أنداد، لدينا طموح وتوقع راجح أنها يمكن أن تكون مكانا متناغما بقدر ما وأخلاقيا بقدر ما، لن نكذب في هذه الدوائر أبدا، هذه الدوائر يحكمها اتفاق ضمني على الصدق نلتزم به مهما كانت الصراعات التي يمكنها أن تثور، لأنها في النهاية ستهدأ لنعود إلى اتفاقنا الضمني بقدر من الثقة والأمل أن هذا الاتفاق الضمني ممكن وعادل، وأن الكذب، حتى وإن كان غير ضار أو كان مبررا بشدة، فإنه سيهدد أمل عودة هذا الاتفاق الضمني في وقت ما، لتسميها «دوائر الوفاق والصراعات الآملة».

خارج هذه الدوائر سنضع باقي العالم، حيث يوجد النوع الثاني من الدوائر، دوائر «الصراعات الجذرية اليائسة»، الدوائر التي تضمنا مع أطراف نعرف أننا في مواجهتها معرضون لصراعات جذرية، حريتنا مهددة بشكل فادح، هناك ميزان للقوة مختل بشدة، بشكل يهدد وجودنا نفسه، في هذه المساحة كذبنا ليس إلا تحركات ضمن صراع في مساحة لا أمل فيها لاتفاق ضمني يتضمن الكرامة والحرية والندية، إلا بعد صراع قاس يأخذ موازين القوى إلى وضع يخفف من وطأة التهديد الكبير، كذبنا هو جزء من المناورة التي لا يمكنها أن تطمح للتناغم والندية والحرية المتبادلة هنا والآن، المناورة التي ليس لديها ترف الطموح الكانطي لعالم واحد متناغم.

هذه الدوائر اليائسة لم تكن وليدة تأمل فلسفي مع كانط، ولكنها

t.me/qurssan

كانت محاولة لاختراع مكان أضع فيه تجربة يأس وفشل مؤسف في دفع الفتاة الكذّابة أن تكون معي في دائرة كانطية آملة.

واضح من وصفي أنها تكذب باستمرار، ولكن ما كان استثنائيا أنها بدت لي وكأنها تفعل ذلك انسياقا خلف رؤية مذعورة من العالم باعتباره عالما خاليا تماما من دائرة صدق أو وفاق أو دائرة صراعات محدودة آملة، بدا لي وكأن كل العالم لديها بشكل ما دائرة صراعات جذرية مفتوحة ويائسة، كانت خائفة من العالم ومن الناس بعمق رغم شجاعتها الظاهرة في الاشتباك معهم، ما كان يطمئنها هو ارتكانها دائما إلى الكذب وشعورها بأنها مختفية لا يمكن رؤيتها والحكم عليها، لا يمكنني أن أتجاوز كثيرا المبالغات الناتجة عن مرارة ضياع الحب ولأن التنظير الفلسفي يجنح للحدة أحيانا.

ما حدث أنه عندما بدأت أكتشف كذبها كنت أواجهها، فنصطدم ثم نتصارح ثم نتصالح ويبدو وكأننا بدأنا نؤسس بقدرما لدائرة وفاق وصراعات محدودة بالأمل، الحب في النهاية ليس خاليا من الصراع، فأكتشف كذبها ثانية، فأواجهها ثانية، وهكذا، وبالتكرار بدأت أكتشف تدريجيا توترها العصبي عند اضطرارها لقول الصدق، أو محاولتها ذلك، تشنجات جسدها ووجهها ويدها وشفتيها، لقد كان لديها موانع لا أستوعبها على وجه التحديد تمنعها أن تصدق أن تلك الدائرة من الوفاق أو الصراعات الآملة ممكنة، ويمكنها أن تسترخي وتثق وتتوقف عن الكذب، بالطبع وعود الحب هي شيء يصعب تصديقه بشكل كبير، ولذلك توقفت عن لومها، لأنها لا تستطيع بشكل ما أن تنضم إليّ في دائرة الحب كدائرة لوعد بالولاء والصدق

t.me/qurssan

أو حتى الصراعات الآملة، وعندما انكشفت أكثر وتوترت أكثر بدأت تتحدث أن بعض كذبها لا يمسني ولا يضرني ولكنها ببساطة غير قادرة على أن تكون صادقة بشكل عام، ببساطة لا تستطيع.

توقفت تماما عن التواصل معها كأني لم أعرفها أبدا، حدث ذلك في يوم عادي تماما حدث فيه سوء تفاهم عادي جدا كان يمكن أن يمر، ولكن تخيلت أن نقاشا بخصوص سوء التفاهم لن يمكنه أن يحل أي شيء؛ لأننا هنا والآن في دائرة صراعات جذرية مفتوحة لا يمكن أن نطمئن فيها إلى صدق أي تواصل بشأن أي شيء مهما بدا تافها، وهذه اللحظة تحديدا بدت لي التجسيد العملي لمخاوف كانط النظرية، من أن الكذب حتى البسيط منه وغير الضار يمكن أن يدفع العالم كله أو يجعل دائرة ما من علاقاته تبدو دائرة غير محتملة من الصراعات المفتوحة اليائسة بشكل كبير، أو لنقل متشككة بشكل كبير في احتمالات الصدق والصداقة والحب، كما بدا لي.

تلك الحكاية الاعتراضية كان هدفها بالطبع أن أبدي كثيرا من التفهم لها ولكانط، ولكن فيما يخص أبي، هل يمكنني أن أقول إن كذبي عليه لكوني أرى علاقتي به تقع في دائرة صراعات مفتوحة يائسة وغير آملة في أي وفاق؟ ليس بالظبط.

في جانب من الأمر يمكنني أن أقول إن علاقتي بأبي ـ كأب ـ كانت عبارة عن جزع من ميزان القوة المختل بينه وبيني، كأب أحضرني إلى العالم وأعيش في كنفه وأحبه وأراه قويا وجميلا، وغضبه وعدم رضاه ينزعان عني سلامي واسترخائي وثقتي.

ميزان القوة المختل هذا لم يكن معبرا عن قسوة مفرطة أو قهر،

t.me/qurssan

لقد كنت طوال الوقت ابنا مدللا، ولكن ذلك الاختلال يبدو لي نابعا من كوني ابنا مدللا لا يريد أن يتمرد على الأب، لكي يتوقف عن كونه أبا بهذا الشكل المفرط والقوي والجميل أحيانا والقاسي والتسلطي بقدر ما أحيانا.

لم يكن ما حدث ويحدث وقائع استسلام ولا تمرد، ولكنه كان اختباء لابن مدلل رأى تهديدا وجوديا في امتثاله للأب، فقرر أن يجعل الأب أحيانا في دائرة علاقات وفاق تتضمن الامتثال والصدق، وأحيانا أخرى في دائرة صراع وجودي جذري ومفتوح ويائس من أي وفاق، بين تطلعات الابن المدلل للتحرك بعيدا وبين رغبته في الامتثال وعدم خوض صراع عنيف وجذري مع الأب.

ربما يبدو قولي هنا «إن علاقتي بأبي كانت أحيانا في دائرة وأحيانا في دائرة أخرى» تبريرا واهيا وضعيفا فلسفيا وأخلاقيا. يمكن أن يكون هذا التنقل بين الدوائر تبريرا لأي كذب وإفسادا للنظرية كلها، ولكن في الحقيقة أن علاقتي «الواقعية» معه كانت في دائرة الصدق والامتثال وانتهت بنا أبا وابنا بينهما علاقة هادئة ومستقرة، أما حياتي المختبئة، التي أعيش فيها أفكاري وخياراتي، كانت طوال الوقت لا تتضمن «علاقة واقعية» معه، كانت علاقة غير موجودة فعليا، علاقة هروب مستمر بين طرف يختبئ من طرف، والطرف الآخر بدوره يغض بصره أحيانا عما قد يسبب الصدامات الجذرية، لكي تستمر «العلاقة الواقعية» في دائرة الوفاق والصراعات الودية الآملة.

t.me/qurssan

١٦

٢٠١٠

«أقسى ما يمكن تحمله في البنوة، أن تعيش في بيت مع أب أقرب ما يكون لـ روبرت دي نيرو:

شجاع شهم قوي نبيل جذاب مغامر وحنون ومغناطيس بشري،

ستظل طوال عمرك تتأمل وجهك الذي يشبهه في المرآة،

فتكتشف بوضوح القطعة الناقصة التي لم ترممها جيناته في روحك فطفت على وجهك.

تحسد الآخرين على أب قابل للكسر،

قابل للتجزئة،

يمكنهم الانفلات بشأنه على المقهى بشكل سينمائي،

حتى هذا الذي أقوله الآن مبتذل جدا».

هذا ما كتبه محمود عزت، أخي، عن أبي، في ديوانه «عن الكائنات النظيفة».

١٧

٢٠١٦ - ١٩٩٧

ما يقوم به النفوذ والسطوة من تشكيل للعالم رأته حنة أرندت شكلا من أشكال الكذب.

تعتقد أرندت أن السلطة أثناء ممارساتها للسياسة لا تبالي بالحقائق

t.me/qurssan

الواقعة في مقابل ما تريده أن يكون حقيقة، تمارس السلطة الكذب على الخاضعين لها، وتقوم بتغيير حقائق ماضيهم وحاضرهم، وتعيد تشكيلها وإقناعهم بها لكي تصنع مستقبلا تريده. فالسياسي لا يخضع للحقائق لكنه يصنعها، كلامه لا يطابق الواقع لكنه يدفع الواقع أن ينحشر وفق رؤيته له في التاريخ وفي المستقبل.

هل يمكن أن نرى النفوذ الأبوي في عملية التربية هو أيضا شكل من أشكال الكذب؟

هل يكون التصور الأبوي عن «عمرو الحقيقي» هو أساس عملية تشكيل للماضي والحاضر الخاصين بي من أجل تشكيل مستقبلي؟

ألم تكن كذبة «ختم الجنة» تفسيرا لاختلافي وماضيه وحاضره وإيهاما بخصوص مستقبلي الدنيوي والأخروي؟

قد يكون ما شدّني إلى السلفيّة، في الوقت نفسه الذي كنت نهما فيما يخص الموسيقى والأدب والفن والرياضة، هي تلك الكذبة الراديكالية المتماسكة التي تريد تشكيل العالم بصرامة: في لحظة ما من التاريخ تجسّد ما يمكن أن يكون نموذجا للإنسانية، لا يمكن الاتكاء على النص الديني وحده بينما نرى اللغة تتفلت من بين أيدينا وتراوغنا، واهمون من يعتقدون أن السلفيّة تقدس النص، كما أنه لا يمكن الاتكاء على سلسلة طويلة لا تنتهي من البشر الذين نعتقد بصلاحهم ونثق في أفعالهم ـ مثل الصوفية ـ بل ما سيحدث أننا سنعتمد على لحظة مجمدة هناك بعيدا، حيث أجيال ثلاثة من السلف الصالح يقرءون النص الديني ويفسرونه ويتصرفون وفقه ولا يجوز لنا أن نحيد عن ذلك النموذج.

t.me/qurssan

يبدو لي ذلك تصورًا متماسكًا نسبيًّا يريد الحفاظ على ترابط جماعة دينية محددة بالمقارنة مع باقي التصورات الدينية التي تعطي الأمان بسذاجة للنص أو للغة.

هل يمكن أن نقول إن السلفية الإسلامية بأجنحتها الثلاثة: المتوائم الموالي للسلطات والمنسحب المعتزل لها والمتمرد المحارب لها، هو أكثر تقليد ديني له أتباع نشطون متمركزون حول مرجعية متماسكة بأقل قدر من التفاوتات؟ أعتقد أنها أطروحة قد تصمد للنقاش والأهم، وربما الأخطر، أنها قد تصمد أكثر في مواجهة المستقبل.

إذا كنت قد اتفقت معي أن الدين قد يكون مسألة دفاع عن ذاكرة جماعية نثق فيها بآباء بعينهم، فالسلفية تضيّق نطاق دفاعنا، ذاكرة بخصوص لحظة زمنية ضيقة وآباء بعينهم هم السلف من أصحاب النبي محمد وتابعيهم وتابعي التابعين.

هناك ثغرة: تتوتر السلفية عند النقاش عن التاريخ المركب لاختلافات هؤلاء الآباء (الصحابة والسلف) وصراعاتهم، ولكن هذا هو أفضل ما لدينا، لنتجاهل التعقيد والتركيب والأسئلة اللانهائية التي تشكك في كل شيء، يمكنك أن تثق في تلك الأبوة التاريخية وتقبلها على علاتها، لنتسامح مع الثغرة الأقل في حوائط ذلك التقليد الديني المنيع والعصي على المواجهة في أي معركة مع أي تقليد ديني آخر، لنتسامح مع الكذبة الأكثر تماسكا ولنجعلها تشكل حاضرنا ومستقبلنا.

ما تبديه السلفية من صلابة وتماسك في مواجهة التدين التقليدي الذي يحبه المجتمع وتحبه السلطات هو تحديدا ما كان جذابا. تلك الصلابة وذلك التماسك المقلقان لأي سلطة، واللذان أقلقا أبي وأمي

t.me/qurssan

بشدة، ألقت أمي شرائط الكاسيت لمشايخ السلفية هنا وهناك باستياء شعرت تجاهه بالذنب لاحقا، وصب أبي غضبه على «السواك» أمام فرشاة الأسنان، وحاول بالترغيب والترهيب أن يشدني إلى مساحة سهلة التشكيل من تدين منسحق أمام العادات الاجتماعية ومتطلبات التحولات الطبقية أو لضرورات العيش والتكيف مع أيٍّ كان، هي مساحة يحبها الآباء لأنهم يقودون عربة التكيف والتواؤم وتشكيل العيش الآني، بينما السلفية عربة على شريط قطار تخترق الخرائط والتضاريس وتذهب بأولادهم بعيدا.

في الثانوية العامة عندما نجحت بتفوق كبير وطلب مني أبي أن أختار هدية، طلبت أن تكون «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»، المنظر الأكبر للسلفية.

تردد أبي للحظات يغالب غيرته وقلقه من أحد آبائي الجدد ولكن فرحته كانت أكبر من قلقه فأحضر لي الكتب بالفعل وقال لي: «بس ابقى خلي بالك وانت بتقراها»، سألته مبتسما: «أخلي بالي من إيه؟»، قال لي: «وأنا إيش عرفني!». وأضاف وهو يذهب بعيدا بالنبرة العاتبة المرحة: «يا ابن الكلب!».

١٨

١٩٩٥ - ١٩٩٧

بكيت أمام أبي مرات قليلة، كان استياؤه من ذلك أكبر من أي موضوع آخر للمواجهات المتوترة بيننا.

t.me/qurssan

كانت إحدها في بداية السنة الثانية من المرحلة الثانوية عندما اجتذبتني معارك الكلمات والأفكار بين العلوم الدينية والفلسفة والأدب، وبدأت في خطط طموحة للقراءة الثقيلة بثقة زائدة في تفوقي الدراسي المعتاد، أغرقتني الكلمات تماما حتى أفسدت خطتي أن أكون رساما، أربك التديّن خطتي أن أكون فنانا أتخرج في كلية الفنون الجميلة ـ مثل أبي ـ وضاعت الخطوط والصور والألوان من ذهني. هل تكاثر عليّ الآباء؟

احتلت ذهني حالة من التشتت العميق أخذتني إلى ما يشبه الاكتئاب وفقدان الشهية وبدأ أبي وأمي يلاحظان حالتي.

وضعني أبي أمامه يريد أن يفهم، فوضعت أمامه بعض ما أشعر به. دخّن كثيرا وعاتبني على أشياء كثيرة يفصل بينها دائما عتاب متكرر: «أنت شتّت نفسك في مرحلة مصيرية»، وكان ذلك يبدو دقيقا وضاغطا عليّ أكثر، ملامحه المستاءة والغاضبة كانت تبتلع أي ثقة لديّ في نفسي، ويبدو أن مقاومتي للاكتئاب انهارت لحظتها، فبكيت.

كنت قد توقفت عن البكاء منذ زمن طويل، وصنعت فاصلا واضحا بين مرحلة الطفولة وما بعدها بنجاحي الباهر في التوقف نهائيا عن البكاء لأي سبب، رغم الرغبة الملحة الضاغطة في أوقات كثيرة، كنت أواجهها. أعتقد أن أبي فوجئ بي وبإخوتي نبكي كثيرا، ربما بالمقارنة بطفولته مثلا، فبدأ يثور ويغضب عند بكائنا وكانت تلك واحدة من تدخلاته الحاسمة: «مافيش رجالة بتعيّط».

فوجئ بي أبي أبكي، ترك أمر الدراسة جانبا وبدأ يحدثني عن أنه

t.me/qurssan

لا يريدني أن يراني أبكي أبدا لأي سبب، تحدث قليلا عن ندمه أنه دللنا كثيرا في صغرنا، وعن صدمته الآن أن يجدني أبكي، قال إنه يفضل أن أكون «رجلا» متماسكا حتى وإن رسبت في الثانوية العامة عن أن أكون متفوقا بعد أن أبكي هكذا أمامه. قال ذلك بتأثر كبير كنت أتوقع أن يكون تأثيره ضاغطا أيضا عليّ.

ولكني أيضا فوجئت ببكائي، كانت تلك المرة الأخيرة بالفعل التي يراني فيها أبكي، استجمعت نفسي بالفعل، أمامه وفي ذلك الوقت عموما، تجاوزت كون ما يقوله مبالغة إنشائية الغرض منها التعبير عن كراهيته للبكاء أكثر منها قبوله بالفعل لاحتمالات تراجع مستواي الدراسي، ربما تشبثت بحرفية ما قال واطمأن قلبي بشكل ما، أو ربما لأني قد صنعت مشهدا استباقيا وواجهت أشد مخاوفي: مواجهته بفشلي.

عدت للمذاكرة ببرود المقبل على كارثة، واسترخيت كثيرا. لم أتجاوز التشتت ولكني نحيت تأثيره جانبا. دخلت الامتحانات بقدر من الارتياح، إلا أن النتائج السيئة متوقعة بالفعل بعد هذه المواجهة، ويبدو أن هذا كان فعالا، جاءت نسبة مجموع درجاتي ٩٧٪ وأكملت السنة الثالثة بنفس الروح وبارتياح أكبر مع تشتتي الذهني والنفسي فحصلت على نفس النسبة، وعندما أضيف لها درجات المواد الاختيارية للمستوى الرفيع أصبحت نسبة مجموع درجاتي ١٠١٪، وكنت في المركز التاسع على الإدارة التعليمية، لم أصل لاحتلال مركز على المحافظة أو الجمهورية لكن كنت في النادي المرموق لأقلية من أصحاب ما فوق ١٠٠٪. كان انتصارا مؤقتا ومدهشا لثقتي بنفسي وسط التشتت الكبير.

t.me/qurssan

كانت الفرحة عارمة في البيت بعد تفوقي في الثانوية العامة، وكنت سعيدا بالطبع، أتمتع بالتقدير والإعجاب من الأقارب والجيران والزملاء، وكان واضحا أن الأمور تدفعني لدخول كلية الهندسة وسط تشوش كبير فيما أود فعلا أن أفعله، سأتخذ خيارا ربما يحدد مهنتي وما سأفعله طيلة عمري، وكنت أجد ذهني خاليا من أي رغبة واضحة أو اتجاه محدد، وكان ذلك يدفعني ناحية اكتئاب. الكل يتحدث عن أن ذلك إنجاز كبير يخص «المستقبل»، ولكني رأيت ذلك كذبة أخرى لم أصدقها.

وفي وسط الاحتفالات والنشوة التي كانت تسري في البيت الذي يستقبل الاتصالات والتهاني، دخلت غرفتي وخلوت بتشوشي وتشككي. قرأت بعض القرآن وتنازع ذهني بعض المشاعر الدينية الممتنة وبعض القلق الوجودي المتشكك فيما أحسه وأقرأه، بعض فرحة الانتصار أو ذهول النجاة من مأزق كبير، ودمعت عيناي قليلا وأنا أتخيل أن ذلك ربما يبدد فرحة أبي الفائضة وهو يتحدث مع المهنئين في التليفون وصوته القوي يعبر الباب المغلق لغرفتي.

١٩

١٩٩٥

كانت الثانوية العامة سببا أن أصبحت لي غرفة مستقلة. كنت وأخويّ في غرفة كبيرة ولدينا غرفة أصغر للتلفزيون والمعيشة انتقلت إليها أنا ومكتبي وسريري وانتقل التلفزيون إلى الصالة التي تضم الصالون والسفرة.

t.me/qurssan

كنت بالطبع في «مرحلة مصيرية» وأحتاج إلى التركيز في المذاكرة، ولكن الغرفة المستقلة ساعدتني على التركيز في كل ما أصابني بالتشوش وقتها.

كان أبي يطمئن عليّ، خاصة بعد مواجهة البكاء الأخير، ويحاول أن يكون داعما وهو يفتح الباب ويقف مبتسما ممسكا بالمقبض ومادا رأسه فقط إلى داخل الغرفة ويقول: «كيف حال المذاكرة يا باشمهندس؟»، ويتأكد بنفسه من إغلاق الباب جيدا عند خروجه.

في الصيف كان يفتح الباب ويطل برأسه مندهشا من إغلاقه ويتساءل: «بتذاكر ولا إيه؟». فأجيب بالنفي فينظر إلى الكتاب في يدي ويسألني عنه. إن كان كتابا في الفلسفة كان يرسم على وجهه مازحا تعبيرا لعادل إمام يمزج بين الإحساس بالغرابة والاستهانة كالتي يرسمها وهو يسخر من المثقفين في أفلامه، وإن كان كتابا دينيا كان يرفع حاجبه ويجحظ عينيه قليلا مقلدا مشهدا لعادل إمام في فيلم «الإرهابي».

كان مرأى كتاب آخر في أوقات فصول الدراسة طبعا كافيا لإثارة بعض استيائه، ولكني ضبطت جيدا مواعيد اطمئنانه وطلة رأسه عبر الباب التي كانت تلي دخوله البيت أو قبيل خروجه، وكانت كتب الدراسة أو المصحف حاضرين بجانبي وجاهزين في أوقات قراءاتي.

كانت الغرفة تطويرا ماديا وفارقا لخطتي القديمة في «الاختباء»، ونادرا ما تركت الباب مفتوحا أثناء وجودي في البيت، في الدراسة أو في الصيف، لون الجدران المطلية الذي يتراوح مع الضوء بين الأزرق والأخضر الفاتحين، اخترته بنفسي عند تجديد طلاء

t.me/qurssan

الشقة، أصبح خلفية لأفكاري ولشرودي، حتى إني أتذكر اللون وأنا أستعيد أفكار ذلك الوقت، كان اللون أيضا خلفية لما أتذكره من دروس الفقه والحديث والتاريخ الإسلامي التي سمعتها عبر أشرطة الكاسيت بينما لا أعرف ملامح وجه الشيخ الذي يلقيها.

كان أبي يرتبك عند سماع صوت هذه الأشرطة، فكان رد فعله عند طلة رأسه عبر الباب يتراوح بين الاحترام المتوقع لاهتمام ابنه بالدين، وبين القلق لكونه يسمع دروسا متخصصة بعض الشيء في العلوم الدينية.

سماع صوت الموسيقى ينبعث من غرفتي بعد فترة انقطاع كان مثيرا له أكثر، فكان يفتح الباب ويطل برأسه وهو يرسم تعبير «الإرهابي» وهو يسألني: «دا الشريط الجديد لأنغام يا شيخ عمرو؟»، ثم يضحك من المفارقة ويتبعها أحيانا بـ «آه يا ابن الكلب».

كنت قد أجريت مراجعة لتحريم الموسيقى والغناء، وهو أحد الثوابت عند السلفيين المعاصرين، وكتبت بحثا طويلا من عشرين صفحة من قطع الفلوسكاب عن بطلان تحريم الموسيقى والغناء، واستخدمت ضمن مراجعي مؤلفات فقهية تراثية لا يحب السلفيون استعادتها ولا طباعتها كانت ترد على فتاوى تحريم الموسيقى، واقتنع برأيي بعض شباب السلفيين، وقرأ شيخي الذي يدرس لي الفقه البحث وقال لي: «يعني أول بحث طويل تكتبه من نفسك يكون إثارة للشبهات واتباعا للشهوات؟! حرام عليك دا أنا لقيت إخوة لحيتهم لحد ركبهم بقوا يسمعوا سميرة سعيد!».

كان حزينا ووعدني أن يبيّن لي الثغرات فيه لاحقا، ولم يفعل.

t.me/qurssan

أثناء إعدادي للبحث وفي اللحظة التي تفصل بين انتهائي من جمع المادة من المراجع ولحظة بداية الكتابة خرجت من غرفتي، كان الكل نيام وأبي بالخارج يتأخر كعادته، وفتحت التلفزيون ووجدت تسجيلا لفقرة نادية مصطفى في حفلة ما، فبدأت الكتابة على خلفية هذه الفقرة، أذكر جيدا الفستان الذي كانت ترتديه فيها، كنت قد قررت قبل ذلك أن غض البصر عن النساء، الواجب شرعا، غير ممكن عمليا، ولكني لم أكتب بحثا مضادا بخصوص هذه المسألة.

وصل أبي إلى البيت أثناء كتابتي للبحث ومشاهدتي وسماعي لنادية مصطفى. أميز جيدا، أنا وأخويّ، صوت التقاء حذائه بدرجات السلم، لم يكن ذلك يحتاج لمهارة، كان له طريقة مميزة تصنع احتكاكا قويا بين نعل حذائه ورخام درجة السلم فتصدر صريرا عاليا. نسكن في الدور الأول، ومن شباك المنور المفتوح على مدخل العمارة يمكن سماع صوت بدايات صعوده بوضوح، خاصة في الأوقات المتأخرة من الليل، أمامي ٢٠ درجة سلم أو حوالي ١٠ ثوان للملمة أشيائي والاختباء في غرفتي.

٢٠

١٩٩٢

كان صوت احتكاك حذاء أبي بالسلم بعد منتصف الليل يعني غالبا دخوله بعدد كبير من الصحف. كان يشتري معظم الصحف اليومية والأسبوعية ويقضي وقتا طويلا في تصفحها في الصالة وفي الحمام وهو يدخن قبل أن يدخل إلى النوم.

t.me/qurssan

كان مسليا جدا بالنسبة لي، أن أقلب في تلك المطبوعات كلها، التي تحكي أخبار نفس اليوم أو الأسبوع. أنتبه إلى المانشيتات والأخبار التي تحكي نفس الحدث، أتأمل تغير أحجام الخطوط والألوان والصور المصاحبة للخبر، أتأمل نفس التصريحات مقتبضة هنا ومستفيضة هناك، الصياغة مختلفة أحيانا، هنا في سياق الإشادة وهناك في سياق الاستنكار والإدانة، تلك التفصيلة غير موجودة هنا، وتلك الأخرى غير موجودة هناك.

ما الذي يحدث بالظبط؟

سألته مرة أو مرتين عندما كانت الاختلافات كبيرة: من نصدق من هؤلاء؟

أجابني بهدوء أن صحف الدولة تميل للحكومة بعض الشي وصحف المعارضة تتحامل عليها بعض الشيء، وأن الأمر عادة بين هذا وذلك، وأحيانا لا أحد يعرف، لا تعرف إن كنت قريبا مما حدث فعلا.

لماذا نشتري إذن كل هذه الصحف؟

كانت مسلية على كل حال، ولم يكن شيء يغير انطباعي أن الحكومة عادة مخطئة ومجرمة ومتآمرة، لا أدري ما الذي رسخ لديّ هذه الفكرة صغيرا، ولكنها دائما كانت لديّ كمسلمة ما مجهولة المصدر. كانت تلك الفكرة تتناثر في الأجواء حولي، بل وفي الأفلام والمسلسلات التي تبث في التلفزيون الحكومي، كانت الحكومة تظهر في صورة تمزج بين الفساد والقسوة والفشل والخيبة في مواجهة شعب مغلوب على أمره خائب الرجاء في حكومته، إلا

t.me/qurssan

في السياق القومي وسياق الصراع العربي/ الإسرائيلي، هنا تظهر صور البطولة والكفاءة التي تتحدى الصعاب، وتظهر الثقة المتبادلة بين الشعب والحكومة.

في السنة الأولى الإعدادية كتبت وحدي مجلة كاملة من عشر صفحات ورسمت غلافها وكتبت المانشيتات وقمت بتثبيت الصفحات معا بدبابيس وقمت بتصوير عدد من النسخ منها وقدمتها إلى مدرسة اللغة العربية التي ظلت تحدق بي طويلا ولم يظهر عليها أي تعبير وأخذت مني النسخة الأصلية لمجلتي وقالت: هاشوفها طيب. فكرت أنها كانت تحت تأثير مشكلات مع زوجها، لأنها في وقت لاحق عادت إليّ بابتسامة واسعة وعينين لامعتين وقالت «شيء مدهش!»، وسألتني لماذا كنت شديد العنف وأنا أكتب عن مكتبة «خالد بن الوليد».

كانت مكتبة عامة حديثة في إمبابة، افتتحتها زوجة الرئيس مبارك بنفسها، وبعد أيام احتلها الصبيان وملئوها بالضجيج والفوضى، كنت مستاء منهم ولكني انتقدت الحكومة لأنها تركت مساحة واسعة لحديقة وبهو بينما لم أجد كرسيا لأجلس عندما ذهبت.

كان رد فعل أبي على إصداري الأول أن قال شيئين، قال لي إنه من السهل أن يكون الإنسان مهاجما أو مدافعا شرسا، ولكن الأفضل له أن يكون «مهنيا»، يستخدم هذا التعبيركثيرا حتى الآن للدلالة على التزام الموضوعية والسعي وراء المعلومات والتحقق منها، وأيضا ليشير إلى مغزى سياسي: تجنب الأهواء والخيال البعيد، البقاء قريبا من الأرض واتخاذ موقف معتدل ومناسب من

t.me/qurssan

السلطة. الشيء الثاني الذي أنهى به حوارنا هو ما علق بذاكرتي أكثر: الصحافة ليست مهنة جيدة.

٢١

١٩٩٩

«عاوز يحوّل من كلية الهندسة لكلية اقتصاد وعلوم سياسية؟ ويشتغل إيه يعني؟ صحفي؟... طيب. هو حر طبعا. بس لو عاوز يتدلع ويضيع مستقبله يشوف بقى حد تاني يصرف عليه وهو بيضيعه».

كنت قد تحدثت قليلا مع أمي عن اكتئابي ورغبتي في ترك كلية الهندسة، ولكني لست حاسما لأنه ليست لديّ رغبة أخرى واضحة، قلت لها إن كلية الاقتصاد والعلوم السياسية هي كلية يدخلها المتفوقون أيضا وربما كانت خيارا جيدا. تحدثت أمي مع أبي تستطلع رأيه في ذلك الأمر. كانت مواجهة أبي أمرا عسيرا وأنا أعرف ما أريده، وكان مستحيلا أن أواجهه وأنا مكتئب ولا أدري ما أريده، وقد تسربت ثقتي في نفسي بعدما حصلت على تقدير «جيد» لعامين متتاليين، لم تكن رغبة بقدر ما كانت تفكيرا مهزوزا وسط الاكتئاب.

ولم يكن رد أبي جادا، لو كنت حاسما في رغبتي لكنت فعلت ذلك ولثار قليلا وحدثت بيننا مواجهات متوترة كانت ستنتهي إلى قبول ممتعض من جانبه لخياري سيتحول مع الوقت لدعم ورعاية حانيين يمكنني أن أتكئ عليهما. ولذلك تحديدا وسط تشوشي الكامل وتأكدي أن لا رغبة عندي أبدا في العمل بالهندسة اخترت

t.me/qurssan

تخصص «الهندسة الإنشائية» القريب من أعمال أبي. كان دعمه سيعوض فقداني للشغف بالعمل في الهندسة حتى يمكنني أن أتركها لأمر آخر لا أعلمه تحديدا، ولكني أدركت أنني إن تورطت في العمل معه فربما يعني هذا صعوبة شديدة في الاختباء وتجريب أشياء أخرى، وربما يعني مواجهة كبيرة عندما أقرر أن أذهب بعيدا.

قررت استكمال دراستي في كلية الهندسة، باهتمام قليل ينتهي بي إلى تقدير «جيد» كل عام. لم ينتشلني من الافتقاد الكامل للشغف إلا قراري بالانضمام إلى الإخوان المسلمين، وسلوى.

ذهبت بنفسي وتعرفت على الإخوان المسلمين في الكلية، كانوا التيار السياسي الوحيد الظاهر على ساحة النشاط الطلابي، في مواجهة مجموعات من طلبة غير مسيسين يرتبطون بعلاقات ودية مع إدارة الكلية، ترقيت سريعا من اللجنة الإعلامية لأسرة المنار بكلية الهندسة ـ اسم الأسرة الطلابية للإخوان المسلمين ـ لأكون عضوا مرموقًا في اللجنة الإعلامية للتيار الإسلامي في جامعة القاهرة. كان الإخوان المسلمون حتى ثورة يناير ٢٠١١ يعملون في الجامعات تحت اسم «التيار الإسلامي»، ورغم عدم استكمالي لمتطلبات الترقي داخل التنظيم عموما من أخ محب إلى أخ عامل، ولكني أبديت شغفا واجتهادا وكفاءة على مدار عامين شجعهم أن يرشحوني لأن أتولى رئاسة تحرير مطبوعتهم في الجامعة، ولكن ذلك لم يستمر إلا لعدد وحيد تمت مصادرته من الداخل قبل طباعته؛ لأن الأخ المشرف على النشاط الإعلامي بالجامعة رأى أن الأفكار والتناول أقرب لليسار وأبعد عن أفكار التيار الإسلامي.

t.me/qurssan

كنت قد قطعت شوطا كبيرا ناحية اليسار بالفعل، فشكرتهم ووعدتهم أن أذهب للعمل مع اليسار، ولم يكن هناك أي ظهور لأي مجموعة يسارية في كلية الهندسة على خلاف باقي كليات الجامعة، ولكني بدأت على كل حال رحلة في الاتجاه المعاكس وسط بعض محاولات للتشبث بي من جانب بعض قيادات العمل الطلابي، الذين كانوا أكثر مرونة وانفتاحا وكان لديهم أمل فيّ وأمل في أن يتشكل جناح داخل الجماعة على اليسار قليلا ليصحح مسار عمل الجماعة، ونصحوني أن أصبر على المشرفين على النشاط الطلابي، والذين كانوا آباء بشكل ما، قيادات خمسينية وستينية تتابع من علو النشاط الطلابي وتضبط بوصلته وتطمئن على التفاصيل.

ابتعدت ابتعادا حاسما بعدما تولى إخوان الكلية ترتيب اتصالي بالإخوان في إمبابة. كانت التقاليد داخل الجماعة أن أنضم إلى مجموعة تنظيمية محلية ذات طابع تربوي، يسميها الإخوان «أسرة»، يشرف عليها قيادي كبير في السن يكون بمثابة قائد ومربٍ، وعندما وجدت نفسي أمام أب داخل الإخوان المسلمين بعدما كنت وسط زملاء وشركاء نشاط طلابي حسمت أمري وقلت له: إن الجو داخل الإخوان المسلمين أصبح خانقا بالنسبة لي، ولم تعد تربطني به إلا علاقات ودية بالشباب من أقراني، وإنني لست بحاجة لأب آخر، وإنني غير مرتاح للبرامج التربوية داخل التنظيم، وأن كتب مصطفى مشهور، المرشد العام للجماعة وقتها، التي يتم تدريسها هي عبارة عن مونولوجات طويلة ساذجة وتافهة وبلا قيمة، وإدراجها في البرامج التربوية هو علامة تملق ونفاق، وإنني لن أضيع وقتا في

t.me/qurssan

قراءتها. ابتسم في تهذيب وقال لي: أسأل الله أن يحفظك ذخرا للإسلام والمسلمين في موقع آخر تحبه. ثم أضاف ساخرا: لما نشوف الفذلكة دي هاتخليك سيد قطب ولا محمد حسنين هيكل.

تركت الإخوان المسلمين، وكتبت وحدي مجلة كاملة طبعتها على نفقتي ووزعتها على نطاق محدود، كانت قريبة مما يمكن أن يسمى «اليسار الإسلامي»، كان على غلافها شخصية «حنظلة» لفنان الكاريكاتير الفلسطيني ناجي العلي، شعار المقاومة الفلسطينية، ومانشيت مقتبس من شعر محمود درويش: «خسرت حلما جميلا.. وما خسرت السبيلا». وقالت لي سلوى: الله! شكلها مجلة جميلة.

٢٢

٢٠٠١

انتظرتُ سلوى طويلا أمام المسجد، كانت محاضراتنا قد انتهت وكنت أتوقع أن ترحل بعد الصلاة مباشرة، لم أصلّ العصر يومها في المسجد خوفا من أن تنتهي من الصلاة قبلي وتغادر.

انتظرت طويلا، قرابة ساعة ونصف، لا يوجد باب آخر لمصلى السيدات. ظننت أن الأيام قد بدأت تسخر مني بالفعل وأنني سأخرج من هذه الحكاية بعظة دينية ساذجة تتحدث عن محب أجّل صلاته لكيلا تفوته محبوبته، ففاته كلتاهما.

ولكنها خرجت أخيرا، حكت لي لاحقا أنها كانت مرهقة فنامت قليلا قبل أن تبدأ رحلة عودتها إلى المنزل.

t.me/qurssan

أوقفتها قريبا من المسجد وقلت إنني أريدها في أمر مهم، فقالت لي بصرامة: أفندم؟

كانت محاولاتي في الاقتراب منها لم تنته إلى شيء بسبب صرامتها هذه، كانت تحتفظ حولها بمجموعة صغيرة من الأصدقاء تضم فتاة، هي صديقتها المقربة، وعلى مسافة ما اثنان أو ثلاثة من الطلبة الذين أشعر بالملل من مجرد تذكرهم، ربما ما زلت أحتفظ تجاههم بمشاعر عدوانية لقربهم منها في ذلك الوقت. نجحت في أن أكون أقرب نسبيا لصديقتها، أما هي فكانت بعيدة بشكل مؤسف.

وفي ختام فصل دراسي لمحت في إصبع يدها شيئا، أعتقد أن تنفسي توقف لفترة عندما فكرت أنه قد يكون دبلة خطوبة، ارتبكت واعتصرت ذهني محاولا تذكر في أي يد تلبس الفتيات دبلة الخطوبة أو في تذكر في أي من يديها لمحتها. كان ذلك قبل أن تغادر لتتركني في إجازة نصف العام مرتبكا، ولم تكن علاقتي بصديقتها قريبة لدرجة أنه يمكن أن أسألها، ولذا قضيت إجازة نصف العام أفكر في أي يد كانت ترتدي ذلك الشيء الذي ربما كان دبلة.

سألتها: إنتِ اتخطبتِ؟

- نعم؟

- أسأل إن كنتِ اتخطبتِ.

لم يكن في يدها في ذلك اليوم شيئا.

صمتت ونظرت لي بصرامة وحدة.

t.me/qurssan

فقلت لها: أنا معجب بكِ من فترة، وعاوز أتعرف عليكِ وأتقدم لك.

لانت ملاحها في لحظة وتحولت إلى دهشة ممزوجة بالخوف ورهبة الموقف، بعدما كنت أنا خائفا ومرتبكا من صرامتها ولهجتها الحادة. ثم انفجرت في الضحك.

انتقلت أنا إلى خانة الرعب وهي تضحك، فحاولت أن توقف نفسها، توقفت بعد فترة وقالت: «أنا ما فهمتش حاجة من المجلة بتاعتك». وأكملت ضحكها.

اتكأنا على سيارة وبدأنا نتبادل حديثا مرتبكا وهي تتأملني جيدا كأنها تراني لأول مرة، قالت لي إنها لا تعرف شيئا عني غير أني غير موجود في المحاضرات في معظم الأوقات، أوزع عليهم أوراقا ومنشورات، أنني شاطر جدا في قليل من المواد ـ كان ذلك غالبا في السنة الأخيرة لألفت نظرها ـ ولكن أحصل على أصفار كثيرة في أعمال السنة وامتحانات منتصف التيرم، كما أنني، وهنا ابتسمتْ بقدر من الخبث والخجل، أرتدي جوارب ألوانها متناسقة مع ألوان القميص والجاكيت. كان ذلك بفضل التشكيلة المتنوعة من الجوارب لدى أبي التي كان يوفّق بينها وبين لون حذائه المختار ذلك الصباح أو تلك السهرة. كنت أقلده وألبس جواربه ولم أكن أعلم أن ذلك سيترك انطباعا مفيدا لهذه الدرجة.

قلت لها إنها ستعرف عني كل ما تريد، ولكن مبدئيا هناك شيء مهم وهو أنني لديّ خطة ما أتمنى ألا تبدو لها غريبة: سأدرس فرعا من العلوم الاجتماعية بعد الهندسة، سأعمل بالصحافة فترة بجانب

t.me/qurssan

الهندسة، ولاحقا سأترك الهندسة نهائيا عندما أجد فرصة مناسبة، عندما نتزوج يجب أن نلتزم بقدر من التقشف في التجهيزات والاحتفالات ولن أحاول أن أبدأ حياتي مترفا وأورط نفسي في أقساط وديون ولكن يغلب على ظني أني سأكون إنسانا ناجحا ولاحقا سأحب قدرا من الرفاهية، لن أسافر للعمل مهندسا في دول الخليج مهما كانت حدة الركود والأزمة الاقتصادية في مصر.

في الواقع أنني لم أفكر في هذه الخطة بهذه الطريقة قبل أن أقولها لسلوى، لم أرتبها في ذهني ولم أقلها لأي إنسان، رتبتها وصغتها في تلك اللحظة لأنني أردت أن أقول شيئا جوهريا عن نفسي، شيئا يجب أن تعرفه جيدا. وما قلته بالفعل ظل إطارا لخطة ما لحياتي من ساعتها وإلى الآن.

بعدما انتهيت من سرد خطتي كانت قد بدأت تضيق بين حاجبيها وبدا لي أنها غاضبة ومستاءة ولكنها هزت رأسها تعجبا وتهكما ولانت ملامحها وهي تبتسم وتنظر لي بتحد في عينيّ وتقول: «إنت جاي تتقدم لي ولا تملي شروطك عليَّ؟ حاجة غريبة والله»، ثم انفجرت مرة أخرى في الضحك.

t.me/qurssan

٢٣

٢٠٠٣

«والله ما كان على بالي يا هوى.. والله ما كان على بالي يا هوى»، رددها أبي ببطء وراء صوت عمرو دياب المنطلق من الدي جيه، رددها بهدوء وسعادة واندهاش ساخر وهو يضع يدا في وسطه ويرخي الأخرى بجانبه وينظر إليّ وأنا إلى جوار سلوى في حفل خطوبتنا في النادي الفاخر التابع للقوات المسلحة على كورنيش النيل في المعادي.

لم يكن يخطر على باله فعلا أن مسألة زواجي ستشكل خطا طويلا من المواجهات والمناورات بيننا، فبعد أن ننهي خطوبتنا أنا وسلوى بعد سنتين، سأتزوج مرتين وأنفصل مرتين، في المرة الأولى سأخبره بعد أن أتفق مع رضوى فعليا ومع والدها، الذي كان صديقي وأستاذي الأول في مجال الصحافة، وفي المرة الثانية سأخبره أنني ونيفين سنتزوج بعد أسبوع بعد أن نرتب لقاءً تعارفيا للأسرتين بدون أن نطلب رأيهما أو مساعدتهما في أي شيء، وفي المرتين لم يعلم تماما كيف تم الانفصال ولماذا حدث.

كان أبي ينظر إليّ بجوار سلوى جالسا على كرسي «الكوشة» تلك الليلة، وهي المرة الوحيدة التي جلست فيها عليه، مكرها، أحاول أن أجعل سعادتي بخطوبة سلوى تغلب على تأففي من طقوس حفلات الخطوبة والزواج، والأهم أن هذه الطقوس الباهظة نسبيا كانت تشعرني بتهديد خططي في الحياة.

t.me/qurssan

خططي التي لا أعلمها على وجه التحديد، ولكني شرحت اتجاهاتها لسلوى، وتذكرت أن تلك الاتجاهات يجب أن تظل مختفية عن أنظار أبي حتى أبتعد بمسافة عنه، ولكن آباءً آخرين استمعوا إلى خططي. حكت سلوى لأهلها وضحكوا كثيرا وسخروا منها وقالوا لها إنه سينسى هذه الأمور فور أن يتقدم إلى المسار التقليدي للزواج والتزاماته، وسينخرط كمهندس في تلك الحياة التي ينخرط فيها رفاقه، وستظل أفكاره عن مستقبله تلك أحلاما لطيفة ربما يعود إليها ليشبعها قليلا بعد سن المعاش.

لم تحك لي ذلك إلا عندما تأزمت الأمور تماما بيني وبين أهلها ثم بيني وبينها ثم بيني وبين أبي، كنت مرنا وحاولت أن أتجاوب بشكل كبير مع تصوراتهم عن الشاب المقدم على الـزواج، ولكني لم أتخل تماما عن خططي، حاولت ألا أكون حبيس تلك التصورات وألا يكون مستقبلي حبيسها بشكل كامل، لقد كانت سلوى إنقاذا لروحي من تشوش كبير في متاهة المستقبل، رغبتي تجاهها لم تكن محل تساؤل كما كان كل شيء وقتها، من أنا وما الذي أريد أن أعمله، أفكاري تجاه نفسي وتجاه العالم، تجاه الدين والسياسة والأخلاق.

يبدو لي كوميديًّا وتراجيديًّا في الوقت نفسه أنه عندما حاصرني التشوش مجددا داخل تصوراتهم جميعا عما يجب أن أعمله أن عدت إلى هذه الأسئلة جميعا: التحقت بكلية الآداب لدراسة الفلسفة.

t.me/qurssan

٢٤

١٩٩٥

لم أكن بالضرورة أعرف كثيرا عن التفلسف وأنا أجادله صبيا يحاول التملص من بعض أوامـره، ولكنه بدأ مبكرا إنهاء بعض الجدالات التي لم تعجبه قائلا: «مش عايز فلسفة». وكنت أجد عبارته تلك مقنعة ومفحمة بشكل مدهش.

على عكس الشائع، فإن بدايات القراءة في الفلسفة عادة ما تكون مجرد مطالعة الإجابات الكبرى للفلاسفة، القدرة على إثارة الأسئلة بشكل فلسفي مرحلة متقدمة. كان مسليا ولذيذا أن تقرأ شيئا مختصرا عن فيلسوف أو مدرسة فلسفية، خاصة الكلاسيكيين منهم، فتجد إجابات كبرى ونهائية بخصوص هذا العالم. بهذه البساطة يمكنك أن تنتقل بين إجابات كبرى ونهائية، تبدو كلها مقنعة بشكل ما، فقط أول ما تفكر في موقفك الشخصي من كل هذا وأيها ستتخذه منطلقا بحثا عن إجابات أخرى يبدأ التشوش.

الموقف الفلسفي، في أحد أو جهه، يبدأ من تبني منطلقات ذات طابع فلسفي مجرد، أو تبني منهجا محددا للتساؤل والمضي قدما بأسئلة أو محاولات للإجابة مرتبطة بهذه المنطلقات وهذا المنهج. لذلك، وبعد أن تجولت كثيرا مع الفلسفة، فهمت لماذا كانت عبارة أبي: «مش عايز فلسفة»، مقنعة وحاسمة، لأنها ببساطة تعبير عن موقف فلسفي متماسك.

كان الجدال الذي يحتدم ويتعثر بيننا ولا يجد لنفسه بيننا أرضية

t.me/qurssan

مشتركة، ينتهي إلى محاولة من كل طرف لأن يحدد هذه الأرضية. الرغبة الأبوية ترى في نفسها منطلقا مستقلا بذاته، لا يحتاج للتبرير، وتمضي علاقة الأبوة والبنوة كلها وإلى الأبد مستندة عليه. وأيا ما كنت أحاول فعله أو قوله، واعيا بالفلسفة أو غير واع، هو محاولة الاختباء من هذا المنطلق ونقل النقاش إلى أرضية أخرى ومنطلقات أخرى. وهو ما يعني أنني كنت بشكل ما أحاول التفلسف، ورفضه القاطع لتفلسفي هو في النهاية موقف واع فلسفيا، متمسك بمنطلقاته ومتسق معها ورافض للانجرار إلى أرضية أخرى ومنطلقات أخرى.

«مش عايز فلسفة» كانت مقنعة بالفعل في أوقات كثيرة أن النقاش لا يمكنه الاستمرار، وأنني هزمت فلسفيا وعمليا، ولذا، بدأت أفكر، أن الاختباء يجب أن يكون مبكرا ومتفاديا للنقاش لكي يمكن لي أن أمضي في طريقي الخاص، الذي لا أعرفه على وجه التحديد.

٢٥

٢٠٠٤

كنت مهندسا في مكتب صغير، أعمل ما يزيد على ١٢ ساعة يوميا وأسافر من يومين إلى ثلاثة أيام لزيارة مواقع العمل في محافظات مختلفة، أتقشف في كل شيء للادخار، أقضي نهاية الأسبوع في البحث عن شقة، أجلت كثيرا من خططي الشخصية، أقرأ أثناء وجودي في المواصلات وطرق السفر، نشرت مقالات قليلة في بعض الصحف والمجلات على فترات متباعدة، فقط لأرى اسمي فيها ليذكرني أني لم أهجر خططي بشكل كامل.

t.me/qurssan

كنت مرنا للدرجة التي شجعتهم جميعا ـ كل أطراف هذا الزواج ـ لمناقشة أمر شراء شقة تحتاج لأقساط باهظة لسنوات عديدة، بدلا من الشقق المتواضعة التي أقترح أن نتزوج فيها، وأيضا لبدء مناقشة السفر للعمل في الخليج لتغطية هذه النفقات.

لقد كان ذلك متزامنا مع التحاقي بدراسة الفلسفة، وكان التناقض وحده كافيا ليشعر جميع الأطراف أنهم وإياي لا نتشارك نفس الخطة. لم يكن ذلك ليَهُم لولا ما قالته لي ذلك اليوم.

كنت عائدا من مدينة مرسى علم في أتوبيس يستغرق خمس عشرة ساعة للوصول إلى القاهرة، لم أنم منذ ثماني وأربعين ساعة إلا لأوقات متقطعة في وسائل مواصلات مختلفة نقلتني عبر عدة مواقع في مدن مختلفة، لأن المكتب الذي أعمل به يبخل بنفقات إقامتنا في الفنادق، مكالماتنا القصيرة في التلفون تهوّن كل شيء، حتى في أوقات التأزم الكبير، ولكن هذه المرة كانت مختبئة مني، مختبئة خلفهم، أو أنها أظهرت ما كان مختبئا تحت قبولها المرح لكل ما كنت أقوله عما أحبه وأريد أن أفعله، قالت إنها كانت على الدوام مقتنعة بأنه لا يمكن أكون جادا بشأن خططي هذه، وإنني فقط أحتاج بعض الوقت لكي أتخلى عن تلك الطموحات الغريبة تحت ضغوط الحياة والالتزامات، قالوا لها إن كل شيء سيسير، كل شيء على ما يرام، وسأنسى.

كان الأتوبيس يقترب من مدينة القصير، نزلت، حجزت غرفة في فندق، استلقيت على السرير، اتصلت بمدير المكتب وقدمت استقالتي في هدوء، قلت له إنني يمكن أن أسلم ما لديَّ من مشاريع

t.me/qurssan

إن كانوا سيدفعون تكلفة الإقامة الكاملة في الفندق كمكتب محترم، أو أنني سأرمي ما لديَّ من أوراق في الزبالة وسأقضي بعض الأيام هنا للاستجمام على حسابي.

صرخ مدير المكتب أنه لم يكن يعتقد أنني يمكن أن أشترك في تلك المؤامرة.

كان كل فريق المكتب هو أربعة مهندسين، باقي مهندسي المكتب قدموا في ذلك اليوم استقالة جماعية قبل ساعات من اتصالي، سيبدءون عملهم الخاص ويبدءون في منافسة المكتب ومحاولة الاستحواذ على نفس صفقاته، بينما يتركونه فجأة خاليا من المهندسين. كنت بعيدا عن باقي الزملاء وطموحهم المهني ولذلك لم يشركوني معهم في المؤامرة ولكن ثورتي تزامنت بشكل مبهر مع مؤامرتهم، وأبهجني ذلك.

اتصلت بهم وهنأتهم وضحكنا كثيرا لانتقامنا المتزامن من استغلالنا الكبير، وبداية فعل ما نود حقا أن نفعله لأنفسنا، قضيت ليلتي هناك أفكر كم سأفتقد سلوى، وإن كان كل شيء سيسير على ما يرام وسأنسى، وبكيت كثيرا في طريق عودتي للقاهرة.

٢٦

٢٠٠٢ـ٢٠٠٤

كان زاهر، والد سلوى، من أصول تعود للصعيد، تخرج في كلية الهندسة بجامعة الأزهر، متدين يكره الإسلاميين ويحب جمال عبد الناصر، التحق فترة طويلة للعمل كضابط مهندس في القوات

t.me/qurssan

المسلحة قبل أن يفقد ساقه بسبب لغم أرضي ويتقاعد ويبدأ عمله الخاص في المقاولات مع شقيق زوجته.

صعيدي، أزهري، مهندس، ضابط جيش، لديه المكونات الكاملة للشخصية المحافظة، وكان كذلك بالفعل.

قابلني أول مرة بحرارة واحترام شديدين وأبدى إعجابه بي وبما قال عنه إنها جرأتي وشجاعتي وثقتي في نفسي لكي أتقدم لابنته قبل تخرجي في الكلية، قال ذلك تمهيدا للرفض. قال إنه لا يمكن أن أفكر في التقدم لابنته بدون أن تكون لديَّ القدرات المالية الكافية لذلك، وإن ذلك الرفض نهائي.

استلم أبي ملفه، وشحذ قدراته كمغناطيس اجتماعي وكقائد ومدير للبشر على اختلاف تنوعاتهم، التقاه ووجد المهمة صعبة، بدأ في البحث والتحري عنه، جنّد أمي لهذه المهمة، وتعاونت أم سلوى بقدر ما، كانت متعاطفة مع حب ابنتها لي. قالت أمها لأمي إن أخيها ـ خال سلوى ـ هو أقرب الناس لزوجها، كما أنه شريكه في العمل. تعرف أبي عليه والتقى به ونجح في كسب وده وثقته وبعد مفاوضات كثيرة التقى أبي والد سلوى وخالها وتعارفا، وكانت ثقتهما في أبي وفي شخصيته كفيلة لأن يلين أبيها ويقبل بخطوبتنا.

كنت سعيدا وممتنا لما قام به أبي، ولكن كنت قلقا لأن نجاح أبي الباهر في تحويل دفة الأمور تنافس بطولتي لهذا الجزء من السيناريو، ولكن أيضا كانت كاريزما زاهر تنافس بطولتي للقصة من وجه آخر.

كانت سلوى تحبه جدا وتهابه، وكنت أقارن لمعة عينيها وهي

t.me/qurssan

تنظر إليه وتضحك على مزاحه بلمعة عينيها وهي تحدثني وتضحك على مزاحي، لم يكن يوافق على أن نلتقي خارج منزلهم، وكان في الغالب موجودا، كان صوته عاليا وأفكاره منسكبة من شفتيه، بينما أنا أظهر وأختفي بحسابات خوفا على مشروع زواجنا.

ظهرت نعيمة عاكف على شاشة التلفزيون وأنا عندهم في غرفة المعيشة نتناول طعام العشاء فقال بتلقائية: «أحب الملبن! .. لك في الملبن ولا مالكش؟». احمرت وجنتا سلوى وتركت الغرفة وتظاهرت أنها ستحضر شيئا من المطبخ، فنظرت له مندهشا وأنا أفكر هل أقوم بدور الخجول أم بدور الشهواني. كان يستفزني بنظراته التي تتهمني بالخجل من التعبير أو انعدام الذكورة، ما كنت أود قوله فعلا إنني أحب جسد ابنته من خلف أزيائها المتحفظة وغطاء رأسها، كيف كان سيكون رد فعله؟ أعراف الرجولة تنص على اتفاق معروف أنه يمكن للذكور أن يعبروا عن اشتهائهم للنساء البعيدات لا القريبات «المملوكات» لمن يتبادلون إبداء الاشتهاء.

سكتُّ ونقلت بصري مبتسما بينه وبين الشاشة وقلت له إنني خصصت كراسة رسم لنعيمة عاكف وأنا صغير، كنت أرسم جيدا. فضحك وقال: «لك في الملبن من زمان يعني!»، وانفجر في الضحك.

كانت صحبته لطيفة، كنت أتفرج عليه وأتخيله بطلا لفيلم أو رواية، ربما أكتبها، ولكني كنت مأزوما لأن جلساتنا الثلاثية أنا وهو وابنته أو الرباعية بحضور أمها كان يحتل هو بطولتها، بينما أتخبط بين أدوار عديدة محاولا الحفاظ على قواعد اللياقة التي يقفز هو فوقها، وعلى توازنات كونهم أهل خطيبتي وبين ما أخفيه من

t.me/qurssan

أفكاري الحقيقية وخططي للمستقبل. كانت علاقتي بهم هدفها أن أصل لسلوى، وكان أبي وسيط الثقة بكل ما يملكه من ثقل مطمئن لكل ما هو مقبول اجتماعيا، بينما كنت أنا أخفي بداخلي كل ما هو مقلق ومثير لنفور عائلة محافظة، كنت أفكر أنه يمكنني احتمال توتر مستمر في المستقبل، عندما يمكن لي أن أستقبلهم في بيتي وألا أكون مضطرا للاختباء والمناورة لأنهم لن يكونوا بيني وبينها.

كان ينظر إليّ ويقول لي إنه لا يدري لماذا لا أتحدث بصراحة، حدثني أنه سيحترمني حتى وإن كنت منضما لجماعة مسلحة، سيشجع ابنته على طاعتي حتى ولو كنت إرهابيا، ولكن يجب أن أمتلك الشجاعة في إعلان ذلك، كان يعتقد أنني ما زلت مع الإخوان المسلمين وأخفي ذلك، وأحيانا أخرى سألني إن كنت انضممت لأي تنظيم شيوعي. كان محتارا فيّ كحيرتي في نفسي وقتها، ولكنه وجد ضالته فيما قالته سلوى له إنني أقرأ كتبا غريبة في الفلسفة، قال لي بقلق: «بتحب إنت الفلسفة؟ هي سبب اللخبطة اللي إنت فيها دي؟ هاحكي لك حكاية».

وحكى لي حكاية قريبه الذي يعمل أستاذا للفلسفة في جامعة ما، «أكلت الفلسفة عقله» وشتّت تركيزه فانفصل عن العالم، حتى أنه ذات مرة توقف بسيارته ليشتري علبة سجائر، كانت زوجته وأولاده معه وشاهدوه وهو يتناول علبة السجائر ويبتعد ملوحا إلى تاكسي ويركبه! عاد إلى المنزل ودخل غرفة المكتب وأخذ يقرأ شيئا حتى الفجر، لم يلتفت إلى تلفونه الصامت، ولم ينتبه لما حدث حتى عندما عادوا إلى المنزل واطمأنوا إلى أنه هناك.

t.me/qurssan

كان يحكيها بقلق واحتقار حقيقيين ولكنه لم يتمالك نفسه من الانفجار في الضحك بصوت عال وهو يقول: «العرص نسي مراته وولاده في العربية ونسي أصلا إن عنده عربية! وروّح قعد مع أفلاطون أو مع أرسطو!».

ضحكت سلوى أيضا: «هاتسيبني في العربية وتروح لأفلاطون يا عمرو؟»، انزعجت لضحكها وقلت لهما مبتسما إنني لا أدخن ولا أحب قيادة السيارات وأفلاطون لا يستغرقني لهذه الدرجة. انزعج زاهر أكثر وقال لي جادا إنني بالفعل أتحدث مثله، مستفز مثل أستاذ الفلسفة الغائب عن العالم.

عندما بدأت دراسة الفلسفة وسط التأزم الكبير والأخير، حكت لي سلوى أن أباها ثار بشدة أول ما عرف وكسر شيئا في المنزل.

عندما أنهيت المكالمة الأخيرة بيني وبينه، ومعها انتهى الأمر تماما وانهار مشروع الزواج، أمسكت كرسي مكتبي وقذفته باتجاه الحائط فوق سريري فأحدث خدشا واضحا في الحائط ما زال موجودا إلى الآن.

٢٧

٢٠٠٤ـ٢٠١٢

أعتقد أن أبي يفضل أن يراني غاضبا وثائرا على أن يراني حزينا ومنكسرا.

لشهر بعد انتهاء الخطوبة كنت غاضبا وثائرا وحزينا ومنكسرا، كان مزاجه يتغير إن رآني مكتئبا، ولكن يحترم غضبي.

t.me/qurssan

عندما رميت الكرسي باتجاه الحائط سمع الصوت وفتح باب الغرفة، ووقف لحظات ينظر إليَّ وأنا جالس إلى جانب الكرسي فوق السرير ثائرا ثم خرج وأغلق الباب.

تعامل مع أمر انتهاء الخطوبة بسلاسة، ربما شعر أني فقدت القدرة على إدارة دفة الأمور، ورغم أنه لم يكن راضيا عن خططي واتجاهاتي، إلا أنه غضب أن خطيبتي/ «امرأتي» لم تحترم خطط واتجاهات خطيبها/ «رجلها»، حتى لو مالت للرؤية الأقرب إليه.

احترم غضبي وتسامح مع تركي الثائر للعمل، لم يعجبه الأمر نظرا لعلاقته بالمهندس الاستشاري مالك المكتب، ولكن أبي ـ كمدير ذكي ـ يعرف أن بعض الغضب لا يجب مواجهته مباشرة، حاول في جلسات هادئة أن يحدثني عن نظريته، أن الرجل الناجح يجب أن يمتلك القدرة على إدارة حياته والشخصيات من حوله، يضعهم في غرف مغلقة منفصلة: الزواج، العمل، الأصدقاء. لا يجب أن تتقاطع شخصيات الغرف المختلفة كثيرا، ولا يجب أن تفسد أحداث الغرفة غرفة أخرى.

كان أبي ولا يزال مديرا ناجحا، ويحب أن يكون مديرا. حكى لي كيف أنه كان ضابطا في الجيش يقود مجموعة من الجنود، فضل أن يبدأ أعمالا حرة يديرها بنفسه ويتعلم بالتجربة والخطأ، عندما تقدم للعمل في وظيفة حكومية أصر في المقابلة أن خبرته تؤهله لأن يكون مديرا فاستجاب رئيس الشركة مخالفا اللوائح.

يدير أبي معظم شئون العائلة، يرعى معظم شئون أسرها، يترك له أهل هذه الأسر هذه المساحة، واثقين في اهتمامه وكفاءته، بل

t.me/qurssan

ويشارك في إدارة شئون آخرين، موظفين تحت رئاسته أو معارف يطلبون عونه، كان يسافر ليساهم في إتمام زواج هذا أو إدارة طلاق تلك. تعلمت إن طلب مساعدته في أمر يعني أنه يجب أن أعد نفسي لمقاومة ميله لأن يدير كل التفاصيل بعناية واهتمام، مما قد ينتهي بي أنا مساعدا. وكنت أستغل ذلك أحيانا، وأتبرم منه أحيانا.

عندما اشترت زوجتي السابقة سيارة وكنا نسكن في إمبابة بجوار بيت أبي، وكنت لا أحب قيادة السيارات، وما زلت، عاش أبي أياما صعبة وهو يفكر أن زوجتي تدير أمر سيارتها. ليست فقط تقودها وأنا معها، بل وتدير الأمر مع عمال الجراج والميكانيكي وغيرهم. وعندما نفد صبره مني ومحاولاته أن أتولى أنا «القيادة»، استدعى زوجتي وأخبرها أنه سيكون وسيطا في كل تعاملاتها مع الجراج وورش الصيانة وأيًّا من شئون السيارة، فقبلت بابتسامة واعتبرت ذلك خدمة جليلة وعناية أبوية جميلة.

عند انفصالنا كاد الجنون أن يصيب أبي، وأباها، لأنني أصررت على أن أتولى أنا وهي فقط ترتيب تفاصيل الانفصال واتفاقاته، وباءت كل محاولاتهما بالفشل.

انتهى بي تأملي المفرط للنهاية الفاشلة لمشروع الزواج من سلوى أن إدارة أبي الفذة ودعمه لم يجديا، لكونه ليس حليفا لي بشكل كامل، لأننا ـ حين نأتي لعلاقتنا كأب وابن يختبئ منه ـ لا تجمعنا دائرة الصراعات الودية بل دائرة الصراعات الجذرية. تماما كعلاقتي بأهل سلوى. وكان الرهان على سلوى أن تكون حليفا كاملا وعندما فشل ذلك، فإن إدارة أبي، وتوافقها مع رغبات

t.me/qurssan

وآمال أسرة سلوى، نجحت في البداية ولكنها انتهت ضدي في نهاية الأمر، ولذلك فإنني وبشكل تدريجي قررت أن أخبئ شأن زواجي قدر الإمكان وأجعله بعيدا عن التدخل، وتركته يتدخل ويدير أمر السيارة وشئونها لأنني لم أكن متحمسا للأمر ولا مهتما به، وفي زواجي الثاني تماديت للغاية ـ يمكنني أن أدعي أن الأجواء الثورية الحماسية في ٢٠١٢ كانت عونا ـ واتصلت به في أحد أيام فبراير ٢٠١٢ وقلت له إنني سأتزوج الأسبوع القادم من «صاحبتي» وأننا قررنا ذلك ورتبنا كل التفاصيل، وليس على الأهل إلا القدوم للتعارف ومشاركتنا الفرحة في لقاء بسيط نعقد فيه القران ونتجه إلى بيتنا بدون أي تجهيزات إضافية على الإطلاق.

لا أذكر لماذا حدثته عن الأمر في التليفون ولكني كنت منذ ٢٠١١ مشغولا للغاية لأننا كنا «نقوم بثورة»، والأوقات مزدحمة بكتابة المقالات والظهور على الشاشات والتحدث في الندوات وحضور الاجتماعات والمسيرات والوقفات والاعتصامات. ثار بشدة وتساءل عن سبب العجلة، فقلت له إنه مهما كانت الظروف فسنتزوج قبل إضراب ١١ فبراير ضد المجلس العسكري الحاكم وقتها، فسألني ملتاعا: «هو إيه اللي هايحصل يوم ١١ فبراير بالظبط؟».

٢٨

٢٠٠٥ـ٢٠١٢

عندما طلبت من والد زوجتي الأولى، قبل أن نتزوج، أن أتحدث معه، وكان يعلم أني سأطلب منه خطبة ابنته، قال لي إننا سنتحدث

t.me/qurssan

في مكان ما سيأخذني إليه. تحدثنا في السيارة في طريقنا إلى هذا المكان الذي لم نصل إليه أبدا. أول ما ركبت معه بدأ الحديث معي من نقطة ما لا أذكرها ولكنها انتهت بنا إلى حديث طويل وحماسي من جانبه عن جمال عبد الناصر. ودار جدل بيننا حول التجربة الناصرية، كان هو مدافعا شرسا وكنت منتقدا بلين وبتشكك غير حاسم، باستثناء موقفي الساخر من تأييد جيلهم لجمال عبد الناصر وهم داخل سجونه، وكان ذلك أكثر ما دافع عنه مذكرا إياي أنه صعيدي وجيزاوي وهم يعرفون معنى وقيمة «الكبير»، وأنه حتى لو أخطأ وظلم فهو «كبير»، وجمال عبد الناصر كان «كبيرا» في رأيه، وفي رأيي أيضا، ولكن كان ذلك بالنسبة لي على العكس مبررا لكي لا أتحمس لسيرته.

انتقد ميل جيلنا «الليبرالي» و«المتأمرك» في رأيه، حتى لو بدا يساريا بعض الشيء، وكنت في ذلك الوقت في بداية عام ٢٠٠٥ مدوّنا نشطا مع حركة التغيير التي تتقدمها حركة «كفاية»، ورغم أن السياسيين القوميين كانوا يحتلون مكانا بارزا في «كفاية»، إلا أن حركة المدونين النشطة بالتوازي معها كانت ذات ميل تحرري غير متسامح مع الميل القومي الناصري.

أخدنا الجدل السياسي حتى شعرنا بالغرابة فبدأنا نلملم اختلافنا وسكتنا قليلا وقال لي مبتسما: «كنت عاوزني في إيه بقى؟».

أخبرته بارتباك فقال سريعا إنه يحبني ويثق بي ولكنه سيقول لي شيئا واحدا بعيدا عن ذلك: من سيفكر في إيذاء ابنته فسيدهسه بسيارته هذه، وطالما لم يحدث ذلك سأكون أيضا ابنا له ومن سيؤذيني أنا الآخر

t.me/qurssan

سيدهسه أيضا. ابتسم ابتسامته الطيبة وأنهى الحوار قائلا إننا لن نذهب إلى أي مكان وسيوصلني قريبا من بيتي، وأضاف بتحدٍّ ساخر ودود أنه في انتظاري قريبا لكي أتقدم رسميا عندما أحضر ومعي «كبير» لي.

التقيت والد زوجتي الثانية قبل إضراب ١١ فبراير ٢٠١٢، وكانت قد أخبرت أهلها أيضا أننا سنتزوج خلال أسبوع، بموافقتهم أو بدونها! وتعللت أيضا بأننا يجب أن نتزوج قبل الإضراب. كنا نضخم الأمر لكي نمرر قرارنا السريع للانتقال للسكن سويا بدون أي ترتيبات أو تدخلات منهم، وفي النهاية لم يكن إضراب ١١ فبراير حدثا مهما، اللهم إلا بعض التعبيرات الرمزية ضد المجلس العسكري.

كان لقائي بوالدها عبارة عن مناورة طويلة، كان غاضبا ومستسلما، كان يريدني أن أقول له بصراحة إننا لا نعتد برأيه، ولم أقلها صريحة، ولكني أكدت أن أمر زواجنا محسوم ومن الأفضل لهم جميعا ـ الأسرتين ـ أن يشاركونا فرحتنا وأن يكونوا داعمين لنا معنويا، حيث إننا لا نحتاج بالضرورة إلى أي شيء آخر.

عندما مللنا من المناورة، ومل من تهذيبي في التأكيد على خطتنا المهينة لأبوته، سكت طويلا وقال ما يجب أن يكون شعارا للأبوة المتفهمة. قال: «طيب، أنا مش موافق، وربنا يتمم بخير».

t.me/qurssan

٢٩

٢٠١١ - ٢٠١٣

أن تمر الطريقة التي تزوجت بها للمرة الثانية بدون صدام عنيف مع أبي، فهذا بلا شك من «منجزات الثورة».

لقد كان ذلك امتدادا لتلك اللحظة التي عدت فيها إلى البيت بعد تخلي مبارك عن الحكم في ١١ فبراير ٢٠١١ بعد ١٨ يوما من انطلاق الشرارة في مظاهرات ٢٥ يناير، وقال لي أبي: «إنتم صح يا بني.. إنتم صح يا بني. بس الأهم إني اتطمنت عليكم، هادخل أنام بقى بقالي ١٨ يوم مش عارف أنام».

من تلك اللحظة كان أبي يستشيرني وأخويّ في الخيارات السياسية، يسألنا بخصوص الأشخاص والأحزاب، لقد تراجع عن التصويت لعمرو موسى، الأقرب لمزاجه الشخصي، لينتخب عبد المنعم أبو الفتوح، الأبعد عن مزاجنا جميعا ولكنه كان أحد مرشحي توافق قوى الثورة تلك اللحظة، بل إنه أبدى استعدادا للانضمام للحزب الذي انضممت إليه، بل وبدأ يتقبل ويبدي سعادة تجاه نجاحاتي في عملي كباحث وكاتب، ويتابع مقالاتي ويناقشني فيها ويحدثني عن ردود أفعال أصدقائه ومعارفه تجاهها.

يمكننا أن نؤرخ أيضا بالانسحاق الكبير لقوى الثورة بعد ٢٠١٣ بتحول معاكس. لقد عاد أبي ينصحني ـ وهو يراني ويرى رفاقي في ارتباك وانهزام بعد إسقاط حكم الإخوان واستيلاء النخبة العسكرية والأمنية وذيولها على مقاليد الأمور ـ أن أغادر البلاد، أن أحصل على

t.me/qurssan

منحة للدراسة بالخارج أو أبحث عن فرصة عمل هناك، بدأ ينصحني بمراجعة مجال عملي ونشاطي، أن أتوقف عن الكتابة لفترة، وبدأ يحذرني أنني ورفاقي لا نستوعب جيدا ما يحدث في ساحة السياسة ونتخذ خيارات خاطئة، بل وبدأ يحثني على الاعتراف بالفشل بعد زيجتين انتهتا، وأن أفكر في الزواج من فتاة من أوساط محافظة، أشكلها كيفما أشاء، بحسب تعبيره، لكي تكون بجانبي وفي طاعتي.

٣٠

٢٠١١

صباح يوم ٢٥ يناير اتصل بي أبي يسألني عن مكاني ويحثني على عدم الاشتراك في المظاهرات: لا توجد ثورة بميعاد وهذه حركات انتحارية وأنا أعلم أنك تجيد تقدير الأمور ولا تحب المواقف الانتحارية.

طمأنته أنني سأقضي يومي في نوبة طويلة في غرفة أخبار الموقع الإلكتروني لـ«المصري اليوم» لمتابعة اليوم.

توقف موقع «المصري اليوم» عن العمل في منتصف اليوم، قيل وقتها إنه بسبب الضغط الشديد على الموقع، فنزلت إلى ميدان التحرير وجلست على الأسفلت قليلا مع بعض الرفاق نتعجب من المشاركة الواسعة ذلك اليوم قبل أن تفض قوات الأمن الميدان. جرينا في الشوارع المحيطة بالميدان وانتظرنا بإصرار أن نتجمع لنعود، فاجأتنا عافيتنا وأعدادنا الكثيرة المستعدة لمواصلة التظاهر. تظاهرنا حتى الفجر كمجموعات صغيرة تطاردها قوات الأمن في الأحياء المحيطة بالميدان. أنهكنا أنفسنا وقوات الأمن ومن رجع منا

t.me/qurssan

إلى بيته واصل الصياح على الإنترنت أننا سنعود. عدت إلى البيت ومعي قفل باب المرحاض العمومي في ميدان التحرير، كسرناه استعدادا لاحتلال الميدان للاعتصام قبل أن يفرقونا. وضعت صورته على المدونة مع تدوينة بعنوان: كيف نشفى من الياسمين؟

كانت وسائل الإعلام قد أطلقت على ماحدث في تونس وإسقاط الرئيس زين العابدين بن علي «ثورة الياسمين». وانطلقت الدعوة للتظاهر يوم ٢٨ يناير.

اتصل بي أبي قبل انقطاع الاتصالات بكل شبكات المحمول والإنترنت ليلة ٢٨ يناير، قال إن هذه المظاهرات كانت رسالة قوية وهذا يكفي، وأن المزيد هو انتحار وتضييع لما تم كسبه، وأن عليّ أن أتجنب النزول إلى الشارع، فأكدت له ذلك فعلا، بنبرة كذب مستسلمة تماما ووافقته أنها كانت رسالة قوية وتكفي، ولن نشارك بالتأكيد في مظاهرات ٢٨ يناير.

نزل أخويّ من بيت أبي أثناء استحمامه استعدادا لصلاة الجمعة، وقابلتهم في مسجد كبير في ميدان الكيت كات بإمبابة، مشينا من هناك حتى التقينا أول حشد كبير وانضممنا له وسرنا إلى ميدان التحرير في طريق متعرج قطعته اشتباكات ومحاولات من قوات الأمن لتفريقنا، وصلنا إلى ميدان التحرير بعد عشر ساعات تقريبا. قوات الأمن انسحبت تماما، قوات الجيش في الميدان تحمي مقر البرلمان ومقر وزارة الداخلية القريبين من الميدان. ما العمل الآن؟ قلت لأخويّ أن يعودا إلى البيت لطمأنة أبي وإخباره أنني سأبيت في الجريدة لمتابعة الأمور.

t.me/qurssan

لم يرو لي أخويّ حتى الآن حالة أبي وأمي أمام التلفزيون وهما يتابعان صور قتلى وجرحى ومبان محترقة وشوارع مظلمة، تملأها فوضى مرحة لآلاف من الشباب وسط عربات أمن مخربة ومدرعات جيش مرتبكة. لم يرويا لي ما قاله أبي عني، بعد أن اتهمني أنني حرضتهما على المشاركة في المظاهرات، قالا لي إن ما قاله يومها كان أعنف ما سمعاه منه على الإطلاق ولا أحب أن أعرفه.

ورغم ذلك كان ملتاعا وحانيا عندما اتصلت به على التليفون الأرضي أطمأنه أنني في مقر الجريدة، قال لي إن ما حدث يكفي جدا وخطاب مبارك الذي تراجع فيه أمام بعض مطالبنا يكفي جدا، وافقته وقلت له إن هذا صحيح ولكني ما زلت مقيما في الجريدة بشكل دائم لأننا في حالة طوارئ ممتدة. كان يعلم أنني أكذب ولم يكن أمامه أي خيار.

تحدثنا بعد كل خطاب لمبارك قدم فيه بعض الوعود، التي نراها كاذبة أو غير كافية، ووعدت أبي وعودا كاذبة وغير كافية أنني لن أشارك في أي مظاهرات قادمة وأنني أبتعد عن أي خطر.

كان موعد عقد قران أخي الأصغر، مصطفى، يوم ٣٠ يناير وتأجل بسبب ما حدث، وقرروا عقده سريعا بعد ذلك بأيام لأن عدم الاستقرار بدا أنه سيطول. لم نحضر القران أنا وأخي الأوسط، محمود، لأنه تزامن مع موعد مظاهرة مليونية هامة للتأكيد على عزمنا عدم التراجع إلا بإسقاط مبارك. تقبل أخي الأصغر ذلك بل وأبدى لنا أسفه أنه لن يستطيع المشاركة في المليونية الهامة. كذبنا أنا ومحمود على أبي وأمي وقلنا إننا لن نحضر لأن عملنا يحتم علينا متابعة المليونية. كان محمود بعد أن أنهى دراسة الطب قد

t.me/qurssan

بدأ في العمل في إنتاج الأفلام الوثائقية، فلم تكن كذبة كبيرة، كل العاملين في المهن المتصلة بالمجال العام إن لم يكونوا مشاركين كانوا منخرطين رغم أنفهم بأشكال متفاوتة ويجب أن يتابعوا ما يحدث عن قرب، سواء كانوا مؤيدين أو معارضين.

وبالتوازي مع الكذب المستمر على الأهل لكي نختبئ من قلقهم ورغبتهم في الاطمئنان، كنت أنا ومحمود من شبكة واسعة من المحرضين المعروفين على الإنترنت، في المدونات وفيسبوك وتويتر، نصيح بأعلى أصواتنا ندعو الناس للمشاركة واستكمال طريق الثورة.

على أطراف الميدان الهادئة وفي الشوارع الجانبية المتفرعة من شارع رئيسي تمر منه مسيراتنا الحاشدة كنت أرى مكالمات الكذب والطمأنة تلك، حشود من المختبئين من آبائهم، ينهون مكالماتهم بأعين قلقة، ثم يعودون تلتمع أعينهم ويواصلون الهتاف وتحريض الناس على المشاركة بكل حماس.

٣١

٢٠٠٥

«أخويا الكبير
لمّا التزم
ربّى دقنه وصلى في المسجد
البيت اتقلب
وبعدين لمّا بقى يساري

t.me/qurssan

برضه البيت اتقلب
ولمّا مابقوش عارفين هو إيه
برضه البيت اتقلب
السؤال
البيت دا ملته إيه؟!»

عندما قرأ أبي المقاطع السابقة من شعر أخي محمود، ضحك بصوت عال وقال: «صحيح، البيت دا ملته إيه؟». كان يرددها كثيرا ويضحك أو يبتسم كأنها نص يتساءل عن عقيدته المعلنة والواضحة، ويضيف أحيانا: «لما تخلّفوا ويبقى عندكم عيال هاتعرفوا البيت دا ملته إيه».

لقد قمت بعدة تنظيرات بخصوص «ملة هذا البيت»، ملة هذا البيت كواحد من بيوت الشرائح الأقل ثروة من الطبقة الوسطى، هي النجاح وتأمين الحياة والبعد عن موضوعات الشغف والمغامرات. لتكن مهندسا لكن لا تدرس الفن، لتكن متدينا كمشايخ الأزهر أو كأبناء الطرق الصوفية الذين يدورون في الدوائر الآمنة لا سلفيا أو إخوانيا، إن أردت أن تمارس السياسة فلماذا لا تنضم للحزب الحاكم، فكر أن تصلحه من الداخل، لكن بعيدا عن المعارضة.

نظرية أخرى بخصوص ملة هذا البيت كموطن للأبوة، ملة هذا البيت هو الاستمرار لا الانقطاع، لماذا لا يكون أبناؤنا مثلنا؟ لماذا يريدون الذهاب بعيدا؟

بدا لي ذلك جذر الفكرة المحافظة، فكرة السلطة عن نفسها باعتبارها مصدر استمرارية الحياة الإنسانية في اتجاهها الراهن. الأبوة هي الضامن الأساسي لكي يكون الكائن الجديد إنسانا، إن

t.me/qurssan

مجموع الآباء ونوازعهم هم من يشكلون ما يتم تسميته بـ«المجتمع»، المجتمع الذي يفكر في نفسه كشيء موجود يريد أن يستمر، ليس لديه تبرير ولا تنظير لذلك، يحدث ذلك عبر حب ورعاية وامتلاك الكائنات الجديدة التي تصنعها الأبوة.

مسافة واسعة بين تنظيراتي التي رسمت صورة للأبوة باعتبارها موقف المحافظة المتخوف من الشغف والحيوية والمغامرة، والموقف الراغب في الاستمرار والأمان بوصفه هدفا، وبين صورة أبي الحيّة النابضة بالحيوية والتجارب والشغف دائم الحضور بالناس والأشياء. هي المسافة بين الفرد باعتباره أبا وبين ذلك الأب نفسه باعتباره فردا.

هل يمكن أن نقول لآبائنا أنكم لن تفهموا ما نريده بعيدا عنكم وعن رضاكم بنفس المنظور الذي يتبنوه ولكن معكوسا: عندما لن تعودوا آباء ستفهموننا؟

٣٢

٢٠٠٨

بعد عام ونصف تقريبا من عملي بالصحافة صارحت أبي أني كنت أعمل صحفيا كل تلك الفترة لا مهندسا. نظر لي طويلا بلا كلام. قلت له إنني انتظرت حتى تبدأ الجريدة التي أعمل بها في الصدور بعدما كانت تحت التجريب، وبعدما اطمأننت أن دخلي معقول ومطمئن بما يكفي لكي أخبره به. نظر لي مجددا بلا كلام. ثم قال لي: «إنت حر، أنا داخل أنام»، وقام متجها إلى غرفة النوم.

t.me/qurssan

كنت في ذلك الوقت متزوجا وبالطبع مقيما في شقتي الجديدة، التي كانت في إمبابة أيضا على بعد مائة متر من بيت أبي. تطلب إبقاء عملي في الصحافة سرا تكتما مني ومن زوجتي، ولفترة قصيرة كنت أبرر ظهور اسمي في جريدة «الشروق» بأني فقط أكتب بين حين وآخر.

تركت العمل في شركة استثمار عقاري لا تقوم بالدعاية لنفسها عند عموم المصريين، لأنها تقدم مستوى من الترف لا تود أن يطلع عليه أيٌّ من فئات المصريين إلا شرائح ضيقة من الطبقة العليا، يتجه تسويق الشركة مباشرة إلى أشخاصهم ونواديهم وأماكن تجمعهم، والتحقت بالعمل في جريدة «البديل»، أول جريدة يومية يسارية، أسسها مجموعة من رجال الأعمال ذوي الميل اليساري بمشاركة واكتتاب واسع من دوائر اليسار، ورغم الروح العالية والطموحات والخبرة داخل مطبخ جريدة يومية مع مجموعة ممتازة من الصحفيين إلا أن العمل هناك لستة أشهر أصابني باكتئاب وشعور عام بالضياع والخيبة، كانت الجريدة منذ أيامها الأولى تغرق وسط خلافات أو مجاملات صغيرة معتادة في الأوساط اليسارية، انتهى إلى فشل عام للجريدة التي توقفت بعد فترات من المكابرة.

لم أخبر أبي بهذا القرار الجذري في حياتي، حيث انخفض دخلي بحدة، وكنت أنفق من مدخراتي من سنوات العمل في الهندسة، انتقلت سريعا إلى فريق العمل في جريدة «الشروق» التي ظلت شهورا تحت التأسيس وتصدر تجريبيا قبل الصدور العام، وبعد ذلك بستة أشهر عندما استعدت ثقتي بنفسي وبقراري، وبدخلي الشهري نسبيا، قلت لأبي، وكانت صدمته أكبر من التعليق.

t.me/qurssan

قبل ذلك بأربع سنوات عندما تركت العمل بالهندسة بشكل ثوري مع فشل مشروع زواجي بسلوى، تدربت لستة أشهر في مجلة «الملف العربي»، وهي مجلة قومية متعاطفة مع التوجه القومي البعثي، تدربت في قسم الثقافة أكتب عن السينما والموسيقى والمسرح والكتب، وهو ما كان بعيدا عن الضجيج القومي المنتشر في صفحات السياسة والرأي.

صمت أبي تماما خلال الفترة التي كنت فيها غاضبا وثائرا ولم يعلق، ولكنه استخدم بعض علاقاته وصلاته في الأجهزة الأمنية لكي يتعرف على الملف الأمني لهذه المجلة، ورغم أنها لم تكن تشكل أي خطورة، لأنها ببساطة لم تكن مقروءة أصلا، إلا أن ذلك كان أحد مبرراته لكي يوقف مشروعي لـ«تضييع مستقبلي».

لقد كانت لديّ روح ساخرة تجاه المجلة وتوجهاتها، ولصورة صدام حسين بجانب صورة جمال عبد الناصر في مكان بارز هناك، ولكن غضب أبي، وهو يواجهني في جلسة تحذير وعتاب عاصفة، أطلق إفيها وصم اسم المجلة بوصمة لم تزل هناك بيني وبين أخويّ. كان محمود ومصطفى يتركان أيا ما كانا يفعلانه ليسمعا باهتمام مواجهاتي ومناظراتي الطويلة والعنيدة والعاصفة أحيانا مع أبي من وراء باب غرفتهما، وفي ذلك اليوم قال لي أبي: سايب شغلك ورايح تكتب في مجلة مش عارف اسمها إيه! «الملف العربي» ولّا «الملف الكُس أمّاوي»!

وانفجر ضحك أخويّ من وراء الباب فضحكت أنا أيضا على التسمية والاشتقاق، فخفت غضب أبي قليلا وابتسم.

t.me/qurssan

٣٣

٢٠٠٦

التقاني الصحفي الشاب في جريدة «الغد» في مقهى مزدحم في إمبابة، كان يدخن ويعتذر مني ويرد على مكالمات هامة ويناقش مع آخرين صعوبات العمل الصحفي ويتنهد، ثم ابتسم وقال لي إننا أخيرا يمكننا أن نتحدث.

كنت متحفزا أفكر في أشكال من العداونية اللفظية وأتراجع عن ذلك، يسهل ذلك على طبيعتي المفتقدة للعدوان، ولكنه بدا لي مستفزا أكثر، ومن حسن الحظ أن الهدوء الشديد المتضمن لبعض الازدراء بدا لي رد فعل مناسبا لكي لا يبدو أنني ابن غاضب من أجل أبيه ومستاء من ذلك التقرير الذي شارك فيه واتهم فيه أبي بالفساد.

نشرت جريدة «الغد» أن أبي متواطئ مع مستثمر سعودي لبخس قيمة شركة عمر افندي، التي كان أبي يشغل منصب رئيس مجلس إدارتها في ذلك الوقت، لكي يتم بيعها بسعر أقل من قيمتها الحقيقية ضمن مشروع الدولة لخصخصة شركات القطاع العام.

كان أبي حزينا وهو يمارس هوايته اليومية في شراء كل الجرائد، وهو يرى اسمه وتلك الاتهامات في صحف المعارضة، بل ويرى تصريحات وحوارات له، بينما هو لم يتحدث ولم يلتق بمراسلي تلك الصحف.

كان مكتبه يتصل بهم ويرسل لهم تصحيحات وتكذيبات لا تنشر، يخبرهم أنه لا يمانع في إتاحة المعلومات للصحفيين لكن أحدا لم يتصل به.

t.me/qurssan

كانت تلك السنوات أوقات انتعاش المعارضة وحركة التغيير وفي الشوارع مسيرات تهتف بسقوط مبارك، بدأت الفضائيات الخاصة تعمل، والصحف الخاصة تصدر، الشباب ينضمون إلى حركة التغيير ويتابعون المدونين ـ الذين كانوا عشرات ممن يكتبون أو يصوّرون ـ قبل أن يبدأ فيسبوك وتويتر ويصبحوا آلافا.

كانت مدونتي قد حصدت جماهيرية ما، أكتب عن نشاطي بالأساس وسط حركة التغيير، آرائي في السياسة والثقافة ممتزجة بيومياتي الشخصية، كانت مدونتي تحمل اسم «ما بدا لي»، وأصبحت معروفا بقدر ما في أوساط الشباب والمهتمين بالسياسة كمدوّن وناشط.

كان حزب «الغد» من أبرز الأحزاب الجديدة التي خرجت من زخم حركة التغيير وانضم لها الشباب الذين جذبتهم حركة «كفاية»، دعمتُ حملة رئيس حزب «الغد»، أيمن نور، في أول انتخابات رئاسية في مصر في ٢٠٠٥، وكنت ضمن فريق مراقبة لجان الانتخابات، وأعطيت له صوتي بلا احترام كبير لشخصه أو أفكاره، ولكنه كان المنافس الأكثر جدية لمبارك وسط مجموعة من المهرجين الذين كانوا يصرحون بتأييدهم لمبارك رئيسا وأنهم ترشحوا فقط لدعم التجربة.

كان من السهل عبر بعض الأصدقاء في حزب «الغد» أن أصل إلى صحفي شارك في كتابة الملف الكبير عن الفساد في صفقة عمر افندي الذي تضمن اتهامات لأبي.

بدأ الصحفي يتقمص دور البطولة المتعاطفة ويحدثني عن

t.me/qurssan

صعوبة أن أكون موضوعيا تجاه أبي، وكيف أن ما نحن فيه هو موقف صعب بالتأكيد، تركته يتحدث عن التراجيديا وقسوة الحياة وتعقيد العلاقة بين الآباء والأبناء.

كانت أحد محاور التقرير أن أبي سافر إلى الحج بصحبة المستثمر السعودي وعلى نفقته، فسألته كيف توصل إلى هذه المعلومات، هل هو مصدر مقرب من أبي أم من المستثمر، فابتسم ابتسامة متذاكية وقال إنه طبعا لا يفصح عن مصادره، فقلت له إنه طبعا لا يمكن أن يفصح عن مصدره لأن ذلك شيء محرج، لأنه ربما يكون أحد رواد هذا المقهى، أو عامل غاضب من أبي ألف قصة ميلودرامية فجة يقوم فيها اثنان يتواطآن من أجل الفساد بالسفر معا كما في فيلم رديء، وقلت له إنه لو كان صحفيا لديه أبسط أدوات العمل الصحفي لشك في هذه الرواية الرخيصة، وربما علم أن أبي لم يذهب إلى السعودية ولم يقم بالحج مطلقا.

صمت قليلا ونظر لي وقد أربكته المفاجأة ولكنه حاول مواصلة التذاكي، وبدأ يتحدث عن إمكانيات درامية مثيرة يذهب فيها أبي إلى الحج سرّا، قاطعته وسألته إن كان حاول التواصل مع أبي، محور التقرير، فقال إنه لم يحاول، أخبرته أن أبي اتصل بهم وترك تليفوناته لهم إن أرادوا أن يناقشوه فيما وصلوا له من معلومات، فقال لي إنه لم يعلم بذلك.

انتزعت منه منبر النصيحة المتعاطفة، وقضيت باقي الوقت أحدثه أن تجربتي في العمل بالصحافة قصيرة وفي مجلة بائسة لا تختلف شيئا عن الجريدة التي يعمل بها، ونظرت له بجدية بالغة وقلت:

t.me/qurssan

«مجلة اسمها (الملف الكُس أمّاوي)»، ضحك بشدة ومندهشا، فأكملت جادا وسط ضحكه الذي تلاشى سريعا، أن هذه المجلة بها بعض الصحفيين الذين حافظوا على حد أدنى من قواعد المهنية الصحفية، رغم الحالة البائسة للمؤسسة لكي لا يتورطوا في مواقف تظهرهم شخصيا كفاشلين، ولكي يحفظوا احترامهم لأنفسهم، خاصة وإن كانوا ينتمون للمعارضة ويلومون السلطة على الكذب والفساد وعدم الكفاءة.

كان يشعر بالحرج، وكنت بين الحرج والفخر، الحرج من كوني أدافع عن أبي المسئول في الدولة، والفخر لكوني أدافع عن أبي. لم تكن مرافعتي مرتبة، وكانت مرتبكة بين الحجج الموضوعية ومحاولة إهانته، ولا أنكر أني فعلا شعرت بقدر من شفقة نحوه، ونحو فرصته الضائعة في لعب دور الصحفي المشاغب، في حين أنه في الحقيقة كان يمارس فشلا مزريا وإهمالا تقليديا متفشيا في عالم الصحافة.

وعندما شعرت بذلك قطعت كلامي فجأة وقلت له إنني مشغول ومضطر للمغادرة، وانضم ذلك لتكتيك الإهانة رغم أني لم أقصد. عدت إلى البيت ولم أخبر أبي بما حدث.

٣٤

٢٠٠٦

عاد أبي إلى البيت ممسكا في يده بجريدة الأهرام مفتوحة على إحدى الصفحات، وجهه بين الابتسام والدهشة والعناء، هتف

t.me/qurssan

يناديني وأعطاني الجريدة مشيرا إلى تقرير عليه خطوط حمراء بالقلم الجاف وقال: «إنت عملت إيه يا ابن الكلب؟».

كان التقرير عرضا لتدوينة طويلة كتبتها عن مدونتي سجلت فيها موقف أبي بالتفصيل من سياسة الخصخصة التي تنتهجها الحكومة، وموقفه من الضجة المثارة عن بيع شركة عمر افندي التي يرأسها، وهو عضو في لجنة لتقييم أصولها وتحديد السعر المناسب لبيعها، والأهم موقفه من ضجة كبيرة صنعها واحد من أعضاء هذه اللجنة، وصاح في صحف المعارضة أن الحكومة تضغط لبيع الشركة بثمن قليل، وفق تقييم إحدى الشركات الخاصة بالدراسات الاقتصادية، وتمارس ضغوطا على اللجنة لإقرار هذا التقييم. تلقفت المعارضة العضو الصائح كنموذج للموظف الشريف الذي يفضح فساد الحكومة، وأفردت المساحات لصوته وتم تنظيم عشرات المؤتمرات واللقاءات في مقرات الأحزاب والحركات، وتم تأسيس حركة خاصة اسمها «لا لبيع مصر» تضمه وآخرين لمعارضة خصخصة شركات القطاع العام.

كان أبي قد توقف عن الحديث مع معظم صحف المعارضة، استمع إلى نصيحتي بتركيز الجهد مع الصحف الخاصة الجديدة، التي كان حالها أفضل نسبيا لأنها كانت تحاول الاحتماء بقواعد المهنية الصحفية من الاتهام بكونها تمارس نشاطا معارضا، فكانت تحاول البقاء على مسافة واحدة من السلطة والمعارضة.

على مدار أيام فتحت حوارا طويلا مع أبي بخصوص اتهامات زميله الصائح عضو اللجنة، يحيى حسين، الذي كان رئيسا لشركة

t.me/qurssan

أخرى من شركات القطاع العام، وبدأ يشرح لي بالأرقام والمستندات ماحدث وكيف أن الدولة بالفعل تضغط بشكل عام لتمرير توجهها الاقتصادي بخصخصة شركات القطاع العام، وأنه شخصيا ليس معارضا لبيع بعض شركات القطاع العام وخاصة شركات التجارة التي لا تنتج شيئا، وأن هذا النشاط ليس مناسبا لأن تقوم به الدولة في رأيه، ولكنه معارض لسرعة البيع لأنه سيجعل الدولة تخسر ويظهرها كأنها تتخلص من عبء وبالتالي سيكون السعر زهيدا، أما هو فيري أن بعض الإصلاحات والتحديثات قبل البيع ستكون مفيدة لضمان نجاح العملية والحفاظ على حقوق آلاف العمال، ولكنه مختلف تماما وممتعض من الشعار الديماجوجي للمعارضة الذي يصف ما يحدث بأنه «بيع مصر». أخبرني أن هذا الضغط السياسي لم يصل لدرجة إجبار أعضاء اللجنة على شيء، وأن التجاذب داخل اللجنة طبيعي، وبعضهم رفض إقرار بعض التقييمات من شركات الدراسات الاقتصادية واعتبروا هذا شيئا غير لائق وسجلوا ذلك رسميًّا.

زميله الصائح، يحيى حسين، كان منذ البداية عضوا في لجنة هدفها تقييم الشركات تمهيدا للبيع ـ «بيع مصر» ـ لكنه بعد أيام أصبح زعيم حملة اسمها «لا لبيع مصر». لم يلتفت أحد إلى هذا التناقض أو التحول السريع كأنه كشف صوفيّ حدث في لحظة، بينما كان أبي يحكي لي كيف أنه متفق مع التوجه العام للدولة، لكنه مختلف مع التفاصيل والأسلوب ويعمل على مقاومة ذلك، وعدم تمرير ما يختلف معه ببساطة.

كان أبي يشرح لي بحماسة كل التفاصيل، وأنا أنظر إليه أراقب التحول الذي حدث، كان مهندسا مديرا للإدارة الهندسية

t.me/qurssan

للديكور يقضي وقته في التصميمات والتفاصيل الفنية والجمالية أو التجهيزات، بين لوحاته وألوانه، وهو الآن رئيسا لشركة ضخمة لديها ما يزيد على الثمانين فرعا في أنحاء الجمهورية. طاولة السفرة في شقتنا الصغيرة في إمبابة على حالها، بعد أن كان يضع فوقها لوحاته وتصميماته، هي الآن ملأى بكتب عن الاقتصاد والتجارة والاستثمار وإدارة الشركات وصور لملفات ومستندات، يقلب فيها كل يوم حتى يغلبه النوم.

عرضوا عليه عضوية الحزب الوطني لكي يحمي موقعه القيادي في الدولة ويبدي ولاءه لتسهل ترقيته لكنه رفض سريعا، رغم دعاوى الإصلاح من داخل الحزب الحاكم التي راجت من وقتها وحتى انطلاق الثورة. ناقشنا أنا وأخويّ في أمر هذه العضوية، وأمام امتعاض وجوهنا قال لنا إنه يميل للتصديق أن هناك شيئا ما يتغير في البلد، وأن هناك حراكا بالفعل يحدث داخل الحزب الحاكم، وأن الأمر ليس كله دعاية خادعة، لكنه لن ينضم للحزب اتقاء لأي شبهة انتفاع من ذلك وهو في موقع قيادي.

عندما انتهى أبي من شرح كل ما يود بخصوص الضجة المثارة حول بيع عمر افندي، واستغرق ذلك أكثر ما يقرب من أسبوع، كنت قد سجلت ملاحظاتي كتابة، قمت ببعض البحث وقرأت معظم ما نشر، وقررت أن أتخذ مسافة من كل ما قاله لي وأن أنشر رؤية أبي ملخصة باعتبارها شهادته، أضعها في وسط عشرات الكتابات التي تنقسم بين ما هو مكتوب في الصحافة الحكومية تأييدا لرؤية الحكومة، وما هو في الصحافة المعارضة صياحا ضدها، حتى

t.me/qurssan

الصحافة الخاصة رأت في ذلك الاستقطاب إثارة اجتذبتها لعرض وجهتي النظر والتجاذب بينهما.

لم أستأذن أبي في النشر، توقفت عند هذه النقطة باعتبارها تخالف أخلاقيات الصحافة، ولكني رأيت غياب وجهة النظر هذه تفريغا للصحافة من مضمونها، واعتبرت أن المدونات هي مكان تجريبي للتجاوز بشأن الالتزامات على الصحافة المؤسسية، مكان للتسريبات وما لا يحب البعض أن يعلنه، كانت لديَّ حماسة كبيرة لعرض وجهة نظر أبي التي راقت لي، وأيضا لأنها نموذج قريبي وتفصيلي لما أراه جانبا من الافتقاد للكفاءة والنزاهة والولع بالصياح الفارغ لدى قطاعات بائسة من المعارضة، أحب من حين لآخر أن أتخذ مسافة منها، ونشرت التدوينة.

كان الموقع الرسمي لحركة «كفاية» يحتفي بتدويناتي ويعيد نشرها أو الإشارة لها، وأصبح عادة منتظمة للموقع، لكنه تجاهل هذه التدوينة، رغم أني كتبت كثيرا في نقد تصورات وحركة المعارضة التقليدية والأحزاب، كان الموقع يتأرجح بين روح المعارضة التقليدية التي تتحرك قليلا نحو أفق جديد وبين روح الانتماء لحركة التدوين، وتولى بعض المدونين إدارة الموقع لفترات بالفعل.

كان فضاء المدونات مستقلا وواعدا وأصواته الأبرز تنتقد السلطة والمعارضة التقليدية وحركة «كفاية» أيضا، كان بشكل ما سجلا لآراء وانطباعات فئات أوسع انضمت لساحة السياسة والاهتمام بالمجال العام منذ بداية الألفية وطموحهم للتغيير، ورغم احتفاء الصحافة المعارضة به ونقلها عنه إلا أنه بقى أعلى سقفا

t.me/qurssan

وأكثر حيوية منها في المجمل. اجتذب فضاء المدونات الأنظار في مصر والعالم ـ كُتبت العديد من الكتب والتقارير الصحفية وأُنتجت أفلام وثائقية وتقارير تلفزيونية ومسموعة عن حركة المدونين في مصر، ظهرت في بعضها ـ ولكنه وبشكل ما ظل معظمه تيارا «تحت الأرض» جمهوره الأساسي من الشباب مستخدمي الإنترنت بكثافة، بينما تنتقي الصحافة التقليدية منها ما يخدم رؤيتها ويثير شهيتها ويناسب سقفها، كانت المدونات تنبض بلغة جديدة متحررة وجريئة، وبذيئة أحيانا، ومضمون يتضمن نقدا عنيفا لكل ما هو مستقر في السياسة والثقافة والدين والتقاليد، بما فيه معظم الثوابت الإيديولوجية للمعارضة: الأفكار الناصرية والقومية وكليشيهات الماركسية ويوتوبيا الاشتراكية الثورية والإصلاح الاقتصادي الليبرالي وبالطبع المشروع الإسلامي.

ما لم أكن أتوقعه أن تقوم جريدة «الأهرام» ـ صوت الدولة وبوقها الأكثر رصانة ـ بعرض تدويني ونقل بعض ما جاء فيها. بالتأكيد أعجبهم انتقادي وتفنيدي لرأي الحملة الزاعقة ضد بيع القطاع العام. ولكن الأهم من ذلك أنه منذ صدور عدد الجريدة أصبح ما كتبته موضوعا لنقاش متوتر بين أبي وقيادات وزارة الاستثمار ووزير الاستثمار.

سألني أبي متوترا عن مدونتي، وأخرج من حقيبته نسخة مطبوعة من تدويني، بحثت عنها سكرتيرته وطبعتها له، وقال لي: «يا ابن الكلب تجرجرني في الكلام وتنشر كلامي على الإنترنت!». ولحسن حظي كانت بلهجة العتاب المستسلم المرح. تجاوز سريعا هذه النقطة وأمسك الورق المطبوع لتدويني وتأمل فيها وهو

t.me/qurssan

يقول: «الوزير زعلان شوية إن رأيي مختلف معاه، وإن دا منشور لكنه بشكل ما مبسوط من موقفي إنه مافيهوش اتهام له بالفساد رغم الخلاف في الرؤية».

سكت قليلا ويبدو أنه كان يحسب حسابات عديدة مستقبلية مترتبة على ما حدث، وقال: «لكن تصدق، مافيش ولا صحفي حكيت له واديت له مستندات وأرقام كتب رأيي بشكل دقيق ومرتب وواضح كدا .. يا باشمهندس».

٣٥

٢٠٠٦

كنت في ذلك الوقت ما زلت أعمل مهندسا وأخطط وأنتظر فرصة للانتقال إلى الصحافة، وبشكل ما كانت تدوينتي عنه هي الخيط الذي شكّل مسار علاقاتي في عالم الصحافة والسياسة أيضا.

حظت تدوينتي باهتمام ونقاش جاد من كثيرين، وبهجوم وسخرية من كثيرين، ولكن كان الاحتفاء الأبرز بها هو من قبل مجموعة «البوصلة»، وهي مجموعة من اليساريين بدأت تتجمع وتنسب نفسها لروح حركة التغيير الوليدة التي تفتح أفقا جديدا مختلفا عن الأفق القديم للسياسة بسلطته ومعارضته، تريد فتح النقاش حول تأسيس «يسار ديمقراطي» في مصر، يضع أهداف وتصورات اليسار في أهداف قريبة وعملية ومنفتحة على تنوعات المجتمع، والحراك الذي ينتمي بالأساس لشرائح الطبقة الوسطى بدلا من انتظار انتفاضة

t.me/qurssan

الطبقة العاملة أو محاولة قيادتها وادعاء الحديث باسمها، وهو ما أوقع مجموعات اليسار في دوائر من الانسداد العملي والطنين اللغوي الراديكالي البراق.

أفردت مجلة «البوصلة» ملفا لمناقشة قضية خصخصة القطاع العام، تضمن تدويني مع مقالات تناقش قضية الخصخصة ودور القطاع العام، بعيدا عن اعتبارها «بيعا لمصر» أو ضرورة حتمية للإصلاح الاقتصادي. كانت المجموعة تميل لنقد الرؤية الناصرية التي تتضمن روحا قومية ونزوعا لاشتراكية دولتية يتعاطف معها اليسار التقليدي.

دعتني مجموعة «البوصلة» للانضمام لها ولهيئة تحرير مجلتها، وشاركت في جلسات التحضير لتأسيس «الحزب الديمقراطي الاجتماعي» الذي لم يتأسس إلا بعد انطلاق الثورة، وأصبح أكبر الأحزاب غير الإسلامية فعليا، رغم تعثراته وأزماته الكثيرة بعد انسداد السياسة منذ يوليو ٢٠١٣، وإغلاق المجال السياسي وإعادة هندسته برؤية النخبة العسكرية والأمنية بشكل هزلي وبائس.

وعبر ترشيح من الراحل سامر سليمان، أستاذ الاقتصاد وأحد مؤسسي البوصلة، بدأت العمل في «البديل» اليسارية، ثم عبر ترشيحه أيضا بدأت العمل في «الشروق» التي ظللت فيها ثلاث سنوات قبل انتقالي لمنافستها «المصري اليوم».

لم أكن متفهما لموقف أبي من السياسة والصحافة، وبالطبع موقفه من انخراطي فيهما، الموقف الأبوي المتخوف، ولكني أعتقد أنني أضع نصب عيني دائما تساؤلي أمامه عن المسافة الواسعة بين

t.me/qurssan

الصورة التي ترسمها صحف الدولة والصورة التي ترسمها الصحف المعارضة والخاصة، التي يشتريها جميعا ويقرأها ويتركها متناثرة في الصالة كل ليلة، ورده السريع المقتضب: الحقيقة غالبا هي في مكان ما بين هذا وذاك.

كثيرا ما دفعني أبي لأفكر في بهاء الرؤية المحافظة وجاذبيتها، بسبب نفوذ شخصيته وجاذبيتها، وأنها ليست ذلك «الشر» الذي يقابل الرؤية المتحررة الرافضة، وعن جانب من حكمة ما في تلك الرؤية تجعل المجتمعات تتشبث بها وتميل إليها، بدون أن أتجنب أن تلك الرؤى قريبة من السلطة السياسية والاجتماعية والثقافية، ولذلك فهي التي تشكل المجتمعات التي بدورها تعود وتميل إليها بقدر ما. هل الرؤية المحافظة بشكل ما هي رابط الأبوة الذي يربط المجتمع بماضيه؟ هل هذا هو سر تحول النظم «اليسارية» إلى نظم سلطوية محافظة أثناء محاولتها حماية مكاسب «ثوريتها»؟ هل تتحول لأب لا يمكنه أن يكون متحررا ومنفتحا على تغيير في اتجاه مختلف؟

٣٦

٢٠١٠

استدعاني أبي غاضبا، كانت حدة غضبه هي الأعلى على الإطلاق في تاريخ مواجهاتنا، وحزينا أيضا، قال لي إن الابن الأكبر لمالكة البناية التي أسكنها، في نفس المنطقة وعلى بعد مائة متر من بيته، شكوا له أن فتيات يترددن على شقتي، كما أنهم لاحظوا زجاجات

t.me/qurssan

الكحول في أكياس القمامة الخاصة بشقتي، وأنهم في العادة لا يسمحون لشباب عزاب بالسكن ولكني سكنت مع زواجي، وبعد طلاقي تغير الأمر وأصبح الأمر مقلقا لهم وغير مقبول.

قال لي أبي إنه تولى أمر الرجل، أهانه وعنفه وهدده ولوّح له بنفوذه وسطوته في المنطقة أن أي مساس بي أو حتى ترديد أي تفاصيل عن حياتي سيجعلهم يندمون على كونهم بنوا بنايتهم هنا في هذه المنطقة، ثم استماله وقال له إنه مثل ابن له ـ كان الابن الأكبر لمالكة البناية في نهاية الأربعينيات من عمره وقتها ـ وأنه موجود لمساعدته ومساعدة عائلته في أي أمر بعد وفاة والده بشرط أن يفهم أنني وأصدقائي وصديقاتي «مثقفون» ومنا «كتاب» و«فنانون» و«سياسيون»، وهم كلهم أصدقاء ولهم حياة مختلفة يصعب على أمثاله من «الصعايدة» تفهمها ـ العائلة المالكة للبناية التي كنت أسكنها مسيحيون أتوا من الصعيد للسكن في إمبابة ـ وقال له إنه من الأفضل لهم، من باب الجيرة ولتجنب غضبه أيضا، أن يحترموا أي إنسان يأتي لزيارته وأنه لو سمع أنهم فقط ينظرون لزواري نظرة سيئة، حتى لو بدون كلام، سيكون له شأن آخر.

للمفارقة، كانت طريقة أبي في التعامل مع الأمر نموذجا لاستخدام سطوة السلطة الأبوية المحافظة ذات المكانة في الدفاع عن هوامش من التحرر والاختلاف، ولكن أبي أعرب عن حزنه الشديد لأني ابتعدت كثيرا بعد طلاقي عن «عمرو الحقيقي»، وعبّر عن أسف خاص لأنني وأنا أبتعد عن «عمرو الحقيقي» لم أراعِ التوازنات الاجتماعية التي تحفظ لي كرامتي ومهابتي في مكانٍ سكني، وهو أمر بالغ الحساسية.

t.me/qurssan

اتفقت مع رأيه، رفضت مناقشته إن كانت اتهاماتهم حقيقية، وعن حقيقة «الفتيات المترددات» إن كانوا صديقات أو غير ذلك، ورغم تقديري لموقفه ومساعدته إلا أنني قلت له إنه لم يكن مناسبا أن يخوض مع الرجل نقاشا أصلا، وإن كان أتى ـ كصعيدي ـ ليشكو لأبي مني، فكان من الأجدر به أن يعود إليّ ويحدثني لا أن يشكوني لأبي كأني طفل صغير أو مراهق.

صمت أبي تجاه حجتي، وواصل التعبير عن غضبه ورغبته في معرفة حقيقة الأمر، ولكني رفضت بحسم، فقال إنني محق في هذه النقطة ولكنه لم يقصر في إهانة وتأديب الرجل بسبب ذلك، لكنه استماله في النهاية ليحافظ على علاقتي بهم.

كان ذلك عظيما لأنني، رغم رفضي الحاسم لما حدث، استندت إليه. تحدثت إلى الرجل ودعوته لشرب الشاي في شقتي واستكملت عملية إخضاعه. كان متوترا بعد لقائه بأبي، وعندما عاتبته على ذهابه قال لي إن تلك تقاليدهم، وإنه على مشارف الشيب وله أولاد ولكن البعض كان ما زال يشكوه لأبيه قبل وفاته، قال ذلك بفخر واعتزاز فبدأت في تفكيكهم. قلت له إنني أحتقر تقاليد الصعيد بشكل عام، ولكن هذا لا يمنع احترامي لشخصه، لأن اختلاف أخلاقنا لا يمنع الاحترام المتبادل وأن نعيش في هدوء نحترم اختلافنا ونتخذ مسافة مناسبة إن لم نكن على وفاق. فهم رسالتي وقال إن هناك موضوعات «حساسة» تخص «الحريم»، فلم يكن هناك مفر لأن أستلهم أسلوب أبي وأهاجم بشكل أشرس. قلت له إنه رجل مسيحي صعيدي محترم، ولكن هناك مسلمين

t.me/qurssan

«متدينين» يرون أن زيَّ نساء عائلته وشعرهم المكشوف شيء غير لائق و«حساس» ويخص فكرتهم عن «الحريم».

حدّق بي مذهولا، وأعتقد أنه لولا نفوذ أبي لكانت اندلعت بيننا مشاجرة بالأيدي، وربما تطورت إلى مشاجرة بالأسلحة، وربما سرت في الحي إشاعة أنها مشاجرة بين مسلم ومسيحي بسبب إهانات متبادلة لـ«الحريم»، واندلعت اشتباكات طائفية معتادة تحدث في إمبابة بين المسلمين والمسيحيين على فترات متباعدة، ويتم فيها حرق واجهات بعض الكنائس وتكسير محلات بعض المسيحيين، وإصابات محدودة من الطرفين تزيد طبعا في الطرف المسيحي، ولكنه اكتفى بالتحديق فيَّ وأنا أكمل أنني لا أتفق مع تقاليد الصعايدة المسيحيين ولا المسلمين ولا معظم أفكارهم الدينية، ولكن هذا لا يمنع أني أحترم شخصه ونساء عائلته، كما يجب هو أن يحترمني ويحترم زواري، وأنه غير مسموح بمناقشة سلوكهم أو مظهرهم أو أوقات زيارتهم.

انتهت المقابلة وهو يجز على أسنانه وأنا لا أصدق أن هذه المناقشة انتهت بدون أن أقرر ترك تلك البناية. واصلت حياتي كما هي فخورا بيني وبين نفسي بما حدث، ودعوت الأصدقاء و«الصديقات» لحفلة صغيرة، وجلسنا ساعات نحلل ونفسر تلك المواجهة التي جعلت احتفالنا في شقتي ممكنا، وكيف نجحت البنوة أن تناور وتنال حريتها مستفيدة من التناقض بين السلطة الأبوية لملاك البناية والمكانة الأبوية لأبي في المنطقة.

t.me/qurssan

٣٧

٢٠٠٠ـ٢٠١٦

لم يتم القبض عليّ أو أذهب إلى مقرات الأمن للتحقيق ولا مرة، أنا نفسي أندهش من تذكر تلك الحقيقة، رغم نشاطي المتنوع من التيارات الإسلامية إلى حركة «كفاية»، ومجموعات اليسار والتدوين والصحافة والكتابة والثورة والنشاط الحقوقي. ربما لحسن حظي أو لحذري أو سرعتي في الجري أثناء فض المظاهرات والاعتصامات أو بسبب مظهري الوقور ـ نسبيا ـ بين أوساط الشباب النشطاء، الذي لا يغري المخبرين و«المواطنين الشرفاء» بمهاجمتي في أوقات مواجهات الشوارع، ولكن بشكل ما أعترف لأبي بفضل كبير.

لقد تم استدعائي مرتين وتهديدي مرة من جانب الأجهزة الأمنية، لسبب ما وصلت كل تلك الاستدعاءات لأبي وأمي وليس لي.

أولها، كان اتصالا من الأمن لوالدي يخبره أنني أنشط مع الإخوان المسلمين، وأنني مشارك في دعوى قضائية ضد إدارة كلية الهندسة قدمها محامي الإخوان بسبب شطب الطلاب المرشحين لانتخابات اتحاد الطلبة. عاد والدي من عمله بعد الاتصال وجدني منهمكا في تسجيل حلقة برنامج «الموسيقى العربية»، كانت حلقة خاصة عن ألحان محمد عبد الوهاب، وبينما كنت أسجل أغنية «يا دي النعيم اللي انت فيه يا قلبي»، جلس بجانبي قليلا ثم سألني: «إنت مع الإخوان المسلمين يا عمرو؟».

أجبت بالنفي وكان ذلك حقيقيا، أخبرني بشأن الاتصال، فقلت له

t.me/qurssan

إنني مرشح مستقل وتم شطبي فعلا مع كل مرشحي التيار الإسلامي/ الإخوان المسلمين، وأنهم تقدموا بدعوى للقضاء الإداري وضموا اسمي إليه بدون علمي نظرا لصداقتنا. أمرني أن أحلق لحيتي لكي أستعد للذهاب معه إلى مقر أمن الدولة، قال لي إنه سيستخدم اتصالاته وسيحاول أن يجنبني الاستجواب هناك. شعرت ببعض الإهانة مقترنة ببعض الخوف والرهبة تجاه ما سيكون تجربة الاستجواب الأول بالنسبة لي، أردت أن أقاوم وأعتد بلحيتي ـ التي ما زلت أطلقها بقدر ما لأنني لا أحب حلاقتها عموما ـ ولكن شعرت أن الوقت غير مناسب. فكرت أن أقول له إنه حتى الإخوان المسلمين طلبوا مني حلاقتها لأنهم على عكس السلفيين، يحبون أن يكونوا مشابهين لعوام الناس لا متمايزين عنهم ولا يعتبرونها من ثوابت الدين مثلهم، ولكن أعتقد أن الوقت كان غير مناسب أيضا. لم أخبره أني كنت بينهم لفترة، وهو لا يعلم حتى الآن أنني كنت.

نجحت محاولته فعلا وجنبني الاستجواب الأول، المرة الثانية كانت في ٢٠٠٥، اتصل الأمن بالمنزل وردت أمي فهددوها وأخبروها أنني وزملائي من المدونين ندعو لمظاهرة أمام قسم شرطة «قصر النيل» بسبب تعذيب مدون صديق داخله بعد مظاهرة لـ«كفاية». شعرت أمي بالذعر واتصلت بي ذلك اليوم وأخبرتني بما حدث، وأنهم طلبوا منها أن أذهب لمقر أمن الدولة بدلا من أن يأتوا هم إليَّ. قلت لها إنها تهديدات خائبة وإنهم لو كانوا جادين لأتوا وأخذوني بالفعل. حاولنا تنظيم المظاهرة وتفرقنا سريعا ولم يأت الأمن إلى منزلنا.

المرة الثالثة كانت تحريات واستدعاءات شفوية تتكرر من ٢٠١٤ إلى فترة قريبة وصلت عبر مخبرين لمنزلي في إمبابة ـ بعد ما تركته ـ

t.me/qurssan

وتولى البواب، بحكم العادة، إبلاغ أبي بما حدث. كان التحريات في مجملها تسأل البواب عني وإن كنت أنشط مع الإخوان المسلمين وفاعلياتهم ضد «الانقلاب». ويبدو أن ملفي القديم عندما كنت وسط «الإسلاميين» ما زال منفصلا عن ملفي الجديد الذي عرفت أنه مصنف في خانة «متعاطف مع الشيوعيين»، هو تصنيف دقيق إلى حد كبير.

تولى أبي الأمر واتصل بالمخبرين واستجوبهم هو مستغلا سطوته الإنسانية وبعض مكانته كمسئول في الدولة، للمفارقة أن أبي في تلك الفترة كان عضوا في لجنة مشكلة لحصر وإدارة أموال رجال أعمال الإخوان المسلمين المجمدة لكي لا تستخدم في النشاط السياسي، وفي النهاية قال لهم إنه من قلة الاحترام أن يصنعوا شوشرة حول منزله وأنه من الأفضل لو أن هناك شيئا جديا أن يحدثه ضابط كبير ليتفاهم معه، ويبدو أنهم استجابوا له، ولم يحدث شيء إلى الآن، وكأنه لا فارق كبير بين حسابات الأجهزة الأمنية وأخلاق ابن مالكة البناية الصعيدي.

٣٨

١٩٩٨

لا يعلم أبي أنه أرسل أربع علب من الحلويات للمعسكر «السري» لطلاب الإخوان المسلمين في محيط مدينة الإسماعيلية الذي لم أكن أعلم أنا نفسي مكانه.

t.me/qurssan

يلخص هذا الحدث أحد جوانب المناورة بين النفوذ الكبير والغامض لأبي وبين محاولتي الاختباء منه. عندما أفكر الآن في حماية أبي لي من الاستدعاءات الأمنية أضع احتمالا متخيلا أنه عضو في جهاز أمني سري ذي نفوذ قوي، ولكن هذا الحدث، رغم أنه يجسد تغلغل نفوذ أبي، إلا أنه يعكس أيضا نجاحي الباهر في الاختباء.

كان أول معسكر أشارك فيه مع الإخوان المسلمين، وقتما كنت متحمسا للنشاط معهم. أخبرت أبي أني سأسافر في رحلة طلابية لمحافظة الإسماعيلية في مكان ما تابع لاتحاد الطلبة، وهو شيء معتاد. في الطريق للمعسكر تم تغيير المسئولين عن المعسكر، واستلمنا في مكان ما في مدينة الإسماعيلية قائد للمعسكر أخذنا وتم صرف القادة الذين تولوا أمر انتقالنا، وبدوره أخذنا وانتظرنا خارج المدينة حتى أتى قائد ثالث، وأخذنا إلى مكان ما تابع للكشافة البحرية في إحدى القرى المجاورة للمدينة لم يكن يعلمه أي شخص انطلق من القاهرة ولا حتى القائدين الأولين.

في الليلة التالية استدعاني قادة المعسكر وسألوني إن كان والدي ضابط شرطة أو يعمل في جهاز أمني، فأجبتهم بالنفي، فقالوا: إن رجلا أتى وأحضر معه أربع علب من الحلويات وقال إنها هدية من والد عمرو عزت لأصدقائه.

كان أبي كمدير بارز في الشركة، وزعيما نقابيا محبوبا وسط العاملين، قبل أن يصبح رئيسا لمجلس الإدارة، يحظى بعلاقات قوية بعاملي كل فروع الشركة في المحافظات. اتصل بأحد العاملين في فرع الإسماعيلية وأخبره أنني في رحلة في مكان ما في المحافظة،

t.me/qurssan

وأوصاه أن يشتري علب الحلويات ويبحث عني في كل الأماكن التي تقام فيها معسكرات للشباب ويعطينا الحلويات ثم يخبره بمكاني. ويبدو أن الرجل كان متفانيا في إخلاصه فمشّط المحافظة حتى وصل إلينا في مقر الكشافة في تلك القرية.

أخبرني قادة المعسكر أن خفير مقر الكشافة لا يعلم هويتنا تحديدا، لأن العديد من الشباب يأتون طوال السنة، ولكن رسول أبي سأله إن كان بينهم شاب لديه «وحمة حمراء» مميزة في جبهته فرد بالإيجاب فتأكد الرجل ـ الذي رآني مع أبي في رحلة صيف في الإسماعيلية ـ وسلمه الهدية وطمأن أبي وأثار ذعر الإخوان المسلمين.

٣٩

١٩٩٧

كنت أعلم أن أبي يدخل إلى غرفتي أحيانا في غيابي ويفتش في أوراقي وكتبي، لذا كنت أخبئ أوراقي المقلقة وسط كتبه وكتالوجاته القديمة وليس في مكتبي، الأبحاث الفقهية أو العقدية التي يطلبها مني شيخي السلفي، أو أوراق الإعداد لمجلات الإخوان المسلمين، أو تلك الكتب ذات العناوين المقلقة.

كان قلقا جدا وكنت وقتها أكثر قلقا منه، أعد نفسي للاعتقال والاستجواب والتعذيب. بكيت مرة ليلا لظني أنني ربما قد أكون أضعف من احتمال ذلك، كنت قد قرأت شيئا عن تعذيب الإسلاميين في مقال في جريدة ما، كان مقالا عن شاب تم اعتقاله بالصدفة في

t.me/qurssan

صلاة الفجر في مسجد كانت تنشط فيه «الجماعة الإسلامية» في إمبابة. بكيت ثم تمالكت نفسي وتوضأت ونزلت لصلاة الفجر.

التقيت صديقا كنت ألعب معه لعبة مسلية، نستكشف كل أسبوع مسجدا مختلفا من المساجد الكثيرة الموجودة بالمنطقة، وذهبنا إلى مسجد مختلف، كان رواده بسطاء رءوا لحانا الخفيفة وسألونا إن كان أحدنا يجيد قراءة القرآن، فقدمني صديقي ـ اعترافا بكفاءتي في التجويد، وأيضا بقدر من المزاح المرتبط بلعبتنا في اسكتشاف المساجد ـ فكنت إمامهم وأعجبوا بقراءتي للقرآن وإتقاني لأحكام التجويد، فأصروا على أن نجلس قليلا نقرأ القرآن ونصحح لهم.

جلسنا قليلا وتفقدت مكتبة المسجد فوجدت فيها كتبا للإخوان المسلمين فسألت أحدهم عن المسئول عن المكتبة، فأخبرني أنه معتقل وأنهم لم يفتحوا المكتبة منذ اعتقاله وينتظرون عودته.

خرجت مع صديقي اشترينا فطورا وذهبنا لنفطر عند النيل ونشاهد شروق الشمس، وتحدثنا عن نتائج الاستكشاف وعن نفوذ الإخوان المسلمين الهزيل في إمبابة مقارنة بنفوذ السلفيين وبقايا الجماعة الإسلامية.

في طريق عودتي وجدت جارا يجري ناحيتي ويخبرني أن أبي «قلب الدنيا» بحثا عني منذ صلاة الفجر. عدت فوجدته ثائرا، لم تكن مثل ثورته اللاحقة بسبب شكوى ابن مالكة البناية، ولكنه كان ثائرا للغاية. صرخ فيّ أنني سأتسبب في موت أمي قلقا عليّ ـ كان دائما ما يتحدث عن قلق أمي بدلا من قلقه في مثل تلك المواقف ـ وأمسكني من ياقة قميصي بعنف وقال لي: اخرج من بيتي.

t.me/qurssan

لم يضربني أبي أبدا، تلك المرة كانت الوحيدة التي اتخذ فيها ضدي موقفا جسديا به شائبة عنف، لم أنتبه كثيرا لمقولة «اخرج من بيتي»، راهنت نفسي أنه لا يقصد، وهو تجاوزها سريعا، ترك ياقة قميصي وأمسك ذراعي وقال لي: «أعرف منين إنك ما اتقبضش عليك من صلاة الفجر زي ما بيحصل؟ إنت مش كنت بتقرا المقال دا قبل ما تنزل؟ إنت ما صلتش في الجامع القريب ليه؟ إنت لازم تقول لي بعد كدا إنت بتصلي فين».

كان أبي قد عاد إلى البيت بعد الفجر ووجد الجريدة مفتوحة على المقال في غرفتي ـ ثغرة أفلتت مني ـ ولم يستطع النوم، انتظرني وعندما تأخرت بدأ الاتصالات وأوقظ أصدقاءه العاملين في الشرطة وبدءوا في البحث عن مكان اعتقالي.

«اخرج من بيتي» لم تكن جادة أبدا، ولكن عودتي إلى غرفتي في بيته بعد تلك المواجهات، كانت في مثل تلك المواقف ممتلئة شعورا بالحصار، كما كانت ممتلئة شعورا بالأمان والعناية، لقد علم أبي من أصدقائه في الشرطة بعد ساعتين من صلاة الفجر أنه لم تحدث حملات أمنية ذلك اليوم، أنا مطمئن بقدر ما أنه سوف يجدني وربما يخفف ذلك مما سيحدث لي، أنا قلق مثله وربما أكثر، لا أعرف إن كنت أود أن أفلت من عنايته أو أنني ممتن لأنني أحظى بها.

تلك الثغرة كانت استثناء لم يتكرر كثيرا، وفي معظم الأوقات كنت ماهرا في الاختباء في غرفتي وفي إخفاء الأدلة والآثار التي تقود إلى نشاطي، الفكري أو العملي. كان عندما يفتقد أي أدلة أو إشارات يبدأ في التردد على غرفتي وأنا فيها، يحاول معرفة ما أقرأ

t.me/qurssan

تلك اللحظة، وعندما يطول اعتكافي في الغرفة مغلقا الباب منكفئا على كتاب لا يبدو مقلقا، رواية مثلا، كان يبدأ مطمئنا في المزاح من رغبتي في الهدوء والعزلة لأوقات طويلة، يفتح الباب بعد أن يطرقه طرقات تمثيلية ويسألني: «الغرفة ٣٠٤ عاوزة العشاء هنا ولا هاتتعشى معانا في المطعم؟»، فأبتسم وأقول إني سأخرج إلى المطعم، يوجه كلامه لأمي أن خدمة الغرف يمكنها أن تدخل غرفة ٣٠٤ أثناء وقت العشاء.

٤٠

«مش عاوز ترجع غرفة ٣٠٤ يا عمرو؟»

كلما حانت الفرصة يلقي بالسؤال الذي يعرف إجابته، انتقلت للسكن بعيدا، «خرجت من بيته»، ولم أعد في غرفتي أو على بعد مائة متر كما كانت أول شقة انتقلت إليها، لم يعد يعرف أصدقائي أو يمكنه أن يتحدث إلى زوجة لي، ينتهز الفرص للعناية بأحوالي ومساعدتي في أمر ما هنا وهناك، صرت مختبئا في مكان بعيد، وغرفتي لم يعد فيها ما يخبره عما أفعله الآن.

الآن أنا الذي أقلب في أوراقه أحيانا عندما أصل مبكرا إلى بيته للعشاء مساء الجمعة حيث تتجمع الأسرة وزوجات أخويّ وأولادهم، لم أندهش عندما وجدت مرة ملفا كبيرا مطبوعا به كل ما أكتب على صفحتي على فيسبوك أو تويتر مع مقالاتي المنشورة مؤخرا وآخر تحديثات مدونتي، لفترة كانت إحدى عاداته الدورية

t.me/qurssan

أن يطلب من سكرتيرته أن تطبع له نشاطي الإلكتروني قبل أن يبدأ هو في التصفح وينشئ حسابا على فيسبوك، قال لي ضاحكا إنه أنشأه خصيصا لكي يتابعني ويراقبني.

تلك الليلة وجدت وسط أوراقه نسخا عديدة من تدوينتي عن موقفه من صفقة عمر افندي، تذكرت سعادتي بحبه لتلك التدوينة واحتفائه بها، كأنها بورتريه له كما يحب أن يرى نفسه. سألته عنها ولماذا طبعها ثانية، قال إنه طبع كل تلك النسخ لكي تكون معه وعندما يأتي إليه صحفي ويبدأ في سؤاله عما حدث، يفتح حقيبته ويناوله نسخة من تدوينتي وهو يقول له: هذه شهادتي وموقفي مما حدث، ابني الأكبر فاجأني وكتبها دون علمي، ويضيف: هذا كل ما حدث وهذا رأيي، لا أستطيع أن أحكي ما حدث أفضل منه.

t.me/qurssan